

الكتاب العربي السعودي ٩٤

ابراهيم هاشم فلالي

رجالات الحجاز

هذا الحجاز تأملوا صفحاته
سفر الخلود ، ومعهد الآثار
ما أروع الذكرى تطيف بناهنا
(لمحمد) ولصحبه الأخيار
شتان بين محرر الأقوام و الـ
مستعبدين سلائل الأحرار
أفيستضيء المسلمون بشعلة
وهاجة من هذه الأنوار ؟

أحمد العربي

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

صدرت الطبعه الاولى من هذا الكتاب
عام ١٣٧٠هـ ـــ ١٩٥١م

بسم الله الرحمن الرحيم

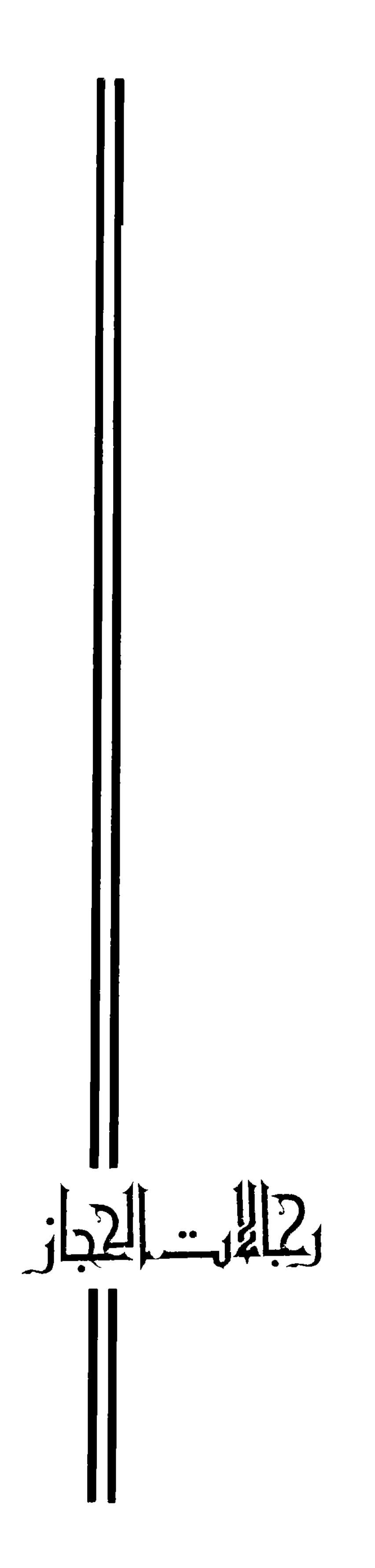


الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ، ٥٤٥٥ - هاتف ، ٦٤٤٤٤٤٤


رجالات الحجاز





بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . . . »

« قرآن كريم »



الكتاب الذى بعث به عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين باشا

للمؤلف بعد أن اطلع على مؤلَّفه

ســيدى :

سلام الله وبركاته عليك . أما بعد فقد نظرت فى كتابك نظراً سريعاً ولم يتح لى ضيق الوقت وكثرة العمل أن أستقصى قراءته استقصاء كاملاً على رغبة منى فى ذلك وحرص منى عليه . وإنى لأهنئك تهنئة صادقة بهذا الجهد الخصب الذى بذلته وهذا النجح الذى وفقت إليه . فحاجة العالم العربى إلى أن يسمع صوت الحجاز فى العصر الحديث ملحة بعد أن غذَّى صوت الحجاز عقول العرب وقلوبهم منذ أقدم العصور إلى الآن . وحاجة العالم العربى إلى أن يسمع الحجاز يتحدث عن نفسه فى هذا العصر الحديث ملحة أيضاً بعد أن تحدث الحجاز عن نفسه فى العصر القديم فأحسن الحديث .

وقد أردت أن تكون لساناً من ألسنة الحجاز فى هذا العصر فوفقت إلى ما أردت توفيقاً حسناً . وإنى لأحمد فى كتابك هذه الحماسة الملتهبة وهذه العواطف المضطرمة وأرى أنها ليست إلا قبساً من هذه الجذوة المقدسة التى تطهر وتذكى دون أن تحرق أوتؤذى .

فامض فى جهدك القيم مصاحباً وارفع صوت الحجاز موفقاً وأحى فى نفوس العرب هذه الصلة القوية المقدسة بهذا الاقليم الحبيب المقدس الذى أشرق منه نور العلم والأدب والدين .

وتقبل أصدق تحياتى .

٩ رجب سنة ١٣٦٤

١٩ يونيو سنة ١٩٤٥

طه حسين

كلمة الأستاذ محمد حسن عوّاد

قد يلتقى التاريخ بالفكرة الفنية فى عمل فنى يشبه العمل التاريخى أو بالعكس ، وهذا الكتاب الصغير الذى نضعه أمام القارىء إنما هو مثال واضح لهذا الالتقاء فهو فى حقيقة أمره فكرة فنية قبل أن يكون كتاباً تاريخياً فيما أرى ، ومن الظلم لجهود صاحبه أن يتحدث عنه كاتب مقدمته ككتاب تاريخ فقط : فما نظن أن صاحبه قصد من وضعه البحث فى تاريخ الحجاز فى عصر من عصوره الغابرة أو الحاضرة فحسب . بل إنا نتأكد أنه إنما قصد به قبل ذلك الفكرة الفنية : فكرة إبراز صورة بارعة — أو صحيحة على الأقل — من عبقرية الفرد الحجازى فى مختلف أشكالها سواء عبقريته فى السياسة والدهاء ، أو فى الفقه والقضاء ، أو فى الحرب والقيادة ، أو فى سمو الخلق النفسى . نفهم ذلك من تضاعيف عبارات الكتاب ومن معارف وجهه التى تطالعنا به فصوله ناطقة مفصحة من دون حاجة إلى أن يصرح هو لنا بهذا القصد . فإن من الغباء أن يحتاج قارىء مثقف يقرأ هذا الكتاب لأول وهلة إلى مثل هذا التصريح من مؤلفه اللبق الذى إنما صبه فى قالب تاريخى أو شبه تاريخى ليجمع بين فضيلة التاريخ ولمعان الفكرة الفنية احتفاظاً بالقديم ومحاولةً لمعالجة الجديد .

والحق أن النزعة الشائعة اليوم بين الشباب الأدباء هى أخذ الحقائق — سواء العلمية منها والأدبية والاجتماعية — بطريق الفن لا بطريق التاريخ ، فالّذين يقرأون حيات النبى مثلا على أنه إنسان مصلح ورسول من الله نجح بعظمته الخلقية فى إبلاغ دعوته إلى الله نجاحاً رائعاً يخضع له الشعور العصرى أكثر من الذين يقرأون حياته على أنه من رسل الله المعروفين وأنه نبينا الذى علمنا هذا الدين من قبل نيف وخمسين وثلثمائة وألف سنة ، فإن هذا الفريق يكتفون من تاريخه بالقدر الذى لا يعيب التاريخ من يكتفى به لأنه يحقق معنى الاطلاع على التاريخ . ولكن الفريق الأول يجد أمامه من اتساع أفق الفن الانسانى ما يدفعه إلى التغلغل فى ألفاف حياة هذا النبى العظيم والتزود من معرفة خصائص نفسه ومميزات ذاته الكريمة لأن دافعه هو الفن ، وبهذا يتكشف له ما لا يتكشف لغيره من أصحاب النظرة التقليدية المقيدة .

بهذا الروح استطاع الكتاب المسلمون وغير المسلمين أن يبرزوا لنا من مميزات نفس الرسول عليه السلام ما لم يستطع إبرازه الكتاب المتزمتون، وحسبك أن تقرأ هذه الفقرات الفنية لكاتب فنان — هو الأستاذ توفيق الحكيم المصرى — فى سر عظمة النبى ﷺ لتأخذ المثال واضحاً على صدق ما ذهبنا إليه . قال الكاتب الأديب : « ينبغى لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبى أن يتخيل رجلا وحيداً فقيراً تمكنت من قبله عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم فى جانب وإذا هو بمفرده فى جانب . هو وحده الذى يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم ، والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ولا يشعرون له بوجود . هذا هو موقف النبى وهذا هو موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح إلا مضاء العزيمة وصلابة الايمان ، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه واتخذت لها فى قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم ، فالنبى هو ذلك القادم الذى يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً ، والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيدة يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط فى ورقة منها ، إنها إذن مبارزة بين فرد أعزل وعصر بأسره يزمجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره وتقاليده وماضيه ومجده وتاريخه . . هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبى ، على أن المعجزة بعد ذلك ليست فى مجرد التحدى و « رمى القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطىء ذلك البحر الطامى العجاج : « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعنى » ذلك الصوت الذى لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ، وليست المعجزة كذلك فى مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هى أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظاهراً منتصراً فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلا وقهقهته صلاة عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ، ما وسائله ؟ هل كانت له خطط ؟ وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر أو ان الله هو الذى نصره دون أن يكون لشخصية النبى دخل فى الانتصار ؟ عقيدتى دائماً أن شخصية النبى لها أثر كبير . . الخ [1] .

(١) راجع عدد الرسالة الممتاز لسنة ١٣٥٦ .

هذا فيما يختص بالنبى ﷺ وهو مثال واضح لطرائق الكتابة الحرة المرتكزة على فكرة الفن قبل أن يخطر لها الارتكاز على فكرة التاريخ ويستطيع القارىء أن يقيس على هذا المثال أمثلة أخرى للحديث عن أى فرد ممتاز أنجبه هذا القطر العزيز وأنت لا تخطىء فى هذا الكتاب أمثلة عديدة تترقرق فيها الفكرة الفنية مما يثبت قطعاً أن من الغباء أن نحشر هذا الكتاب فى زمرة كتب التاريخ ببرودها العلمى وتصميمها السردى فاسمع إن شئت لقول المؤلف عن الحسن بن على بن أبى طالب « ولو كان الآن عائشاً فى هذا القرن لكان أول من نال جائزة نوبل للسلام ولما أبقى شيئاً من الفخر لرجال السلام الدولى المعدودين من أقطاب السياسة العالمية من أضراب « شترزمان » رجل الواجب ، و « بريان » الوزير الفرنسى وصاحب دعوة اتحاد أوروبا ، و « ولسن » صاحب فكرة « عصبة الأمم » ، أو لقوله عن عمرو بن العاص : « صحابى كبير وقائد من أفذاذ القواد الحجازيين ، وقطب من اقطاب السياسة الذين يستطيعون تكييف مجرى التاريخ طبق رغباتهم ويتصرفون فى مصائر الأمم والشعوب فلا تصدر الأمم إلا على وفق مشيئتهم وما تمليه أهواؤهم ، ولا أدل على ذلك من الدور الخطير الذى لعبه على مسرح السياسة فى ذلك الوقت أثناء وقوع الخلاف بين علي ومعاوية . . إذ لولاه لما استطاع (ابن هند) أن ينفذ مشروعه الخطير الذى قام لتحقيقه فى جر الخلافة الاسلامية اليه ثم قلبها ملكا عضوداً يتوارثه أبناؤه من بعده » ، أو قوله عن خالد بن الوليد . « فإذا افتخر تاريخ انكلترا بنلسون ، وتاريخ أمريكا بواشنطون ، وتاريخ فرنسا بجان دارك ، وتاريخ ايطاليا بغاريبالدى ، فإن تاريخ العرب والمسلمين ليفخر أشد الفخر بخالد بن الوليد فاتح العراق وسورية وإيران وقائد أحسن قوة منظمة فى الجيش الاسلامى العربى ، وألمع جوهرة فى تاج قواد العرب » أو قوله عن واضعى نواة المدارس فى الأمصار : « افتتح الحجاز والعراق وفارس ومصر والشام واليمن والهند والأندلس وأفريقية وضم إليه نجداً والجزيرة واليمامة والدهناء ، وكانت كل هذه الأمم التى تسكن هذه الأقاليم الشاسعة منحلة العرى مفككة الأوصال لا يعلمون أين وجهتهم ولا إلى أين ينتهى بهم القرار ، ذاهلين خاملين تنخر فيهم الفوضى ويفتك فيهم الاضمحلال ، منوا بولاة جائرين وعمال ظالمين وإدارة فاسدة تسيطر عليهم وتسير دفتهم وتسوقهم سوق الأنعام إلى مذابح الأطماع والشهوات . وكان الناس فى ذلك الوقت أشبه ما يكونون بنائم ضغط على صدره كابوس قوى شل حركته وخدر أعصابه فجاء الفتح الاسلامى ورفع ذلك الكابوس وطرده عنهم فتنبهوا من غفلتهم وتيقظوا من سباتهم ، فوجدوا أمامهم رسل الانسانية وأئمة الهدى يحملون بين أيديهم رسالة الدين ويلوحون بأعلام العلم وألوية الحرية ، وينادونهم أن هبوا لتغذية أرواحكم

وعقولكم بالمعارف السماوية التى أختارنا الله لأن نكون أساتذة الكون فيها » أو قوله فى ترجمة خبّاب بن الأرت : « وهذا مظهر من مظاهر العظمة وشكل من أشكالها المندسة فى الأفراد العاديين الذين يزخر بهم المجتمع الحجازى فى ذلك الوقت من أبناء الطبقة الفقيرة والتى لا تنتمى إلى البيوتات الرفيعة وليس لهم من العصبية والثراء ما يجعل لهم مكاناً محترماً بين مواطنيهم . وهذا اللون من ألوان العظمة يرينا أن العظمة ليست منحصرة فى أناس دون غيرهم ، وإنماهى سر يودعه الله نفوس من اصطفاهم من خلقه ، وإن عظمة العظيم لا يحجب ظهورها فقر ولا يستر علائمها إدقاع ، وليست العظمة وقفاً على أولئك الذين تصطف لهم الجنود وتحييهم الجماهير وتخضع لهم الرقاب وتدين لهم الشعوب ، ولكنها أروع وأعمق وآصل ، بسِيَر أولئك الذين تخضع لهم القلوب قبل الجسوم وتدين لهم العقول قبل التقاليد لما لهم من العظمة الأصيلة غير المتصنعة ، وليست وقفاً على أولئك الذين يتصدرون المجالس ويرأسون المجتمعات ويحترمهم الناس فيقومون لهم إذا قاموا ولا يجلسون إلا إذا أذنوا ، ولكنها أمثل وأسمى عند أولئك الذين تشخص لهم البصائر قبل الأبصار ، وتعترف لهم النفوس فى قراراتها بأنهم القدوة التى يجب أن تمشى البشرية وراءها » .

أفلا يرى القارىء فى هذه النماذج المنقولة فكرة فنية تشف عن غرض أسمى من المقصد التاريخى .

وأين هذه الطريقة من طريقة التنويه بالزمن المتعاقب والاهتمام بكون الخلافة الاسلامية مثلًا كانت فى المدينة ثم مشت إلى الشام ثم عرجت على العراق ثم طارت إلى تركيا ، أو الاهتمام بأن عمر بن الخطاب ولد عام كذا وتولى الحكم بعد أبى بكر وقبل عثمان بن عفان ، وأن هذا الحادث التاريخى الهائل حادث انبثاق نور النبوة المحمدية كان فى الحجاز فحسب دون أن نستشف ما فى هذه الميزة من معان سامية واعتبارات أدبية تحبب إلينا تاريخ بلادنا وحياة أبطالنا الممتازين ورجالاتنا البارزين ، وتوضح لنا المناهج التى ساروا عليها بأسلوب يقربها إلى نفوس أبنائهم ومن يريد أن يترسم خطاهم المجيدة وذلك بما فيها من صدق التصوير ، وجمال الحقيقة ، ودقة البحث وروعة العرض .

هذا ما نحب أن نلفت إليه الأنظار وهو ما لحظنا أعراضه كامنة فى كتاب الأستاذ الفلالى هذا ، وقد نكون مبالغين فى خلع الفكرة الفنية على الفلالى وكتابه ، كما أننا قد نكون مقصرين فى تحليل الكتاب وإعطائه حقه فى البحث والتنقيب عن خباياه المنطوية خلال العبارات والسطور والفصول . ولكنناموقنون أننا على حق وهدى حين نقول ذلك واننا على يقين من أن عمل الفلالى فى

كتابه هذا يسمو على مواضيع التاريخ ويتصل بأكناف الفن وهو ملاق إن شاء الله من تقدير الأدباء والقراء ماهو خليق بـه .

والسيد ابراهيم الفلالى مؤلف هذا الكتاب رجل مغمور ولكن كم فى المغمورين من أفراد يأتون بمالا يأتيه النابهون من أصحاب الأسماء الطائرة التى يتكرر ذكرها فى الصحف ويتردد لوكها فى الأماكن ؛ وليست المواهب والجهود حبيسة على هؤلاء دون أولئك ولكن الحكمة مستكنة فى خبايا النفوس لا فى حروف الأسماء ولا تكشفها إلا الظروف وما يتهيأ لها من أسباب الاكتشاف القديرة .

فلنصافح هذا الكاتب معجبين ، ولنقرأ كتابه مقدرين .

ويسرنى جداً أن يصمم الأستاذ الفلالى عزمه الأخير على اختيارى لتقديم كتابه هذا إلى قراء الأدب ، وأن يتفنن فى تجديد هذا العزم ويصر عليه بإخلاص فقد قدم مسوداته كاملة من شهرين لهذا الغرض فلم يكن بدٌّ من تحقيق أمله العميق وإنه لمشكور حيث هيأ لى فرصة المساهمة فى خدمة هذا الوطن اللامع فى سماء البلاد العربية لمعان كوكب المشترى ، والزاخر بماضيه الممتاز المتفوق ، وإن من العقوق لمن تتاح له فرصة كهذه ألّا ينتهزها لاثبات ما تحمله جوانحه من حب صادق لبلاده وأمته ونية حسنة للرغبة فى أن يعلو شأنها بكل ما تنطوى عليه من هيئات وأفراد والله الموفق لما فيه الخير العام .

تحريراً فى ١٣٥٦/٢/٢٠

محمد حسن عواد

* * * *



كلمة الأستاذ أحمد السباعي

لعله لا يعيب المكتبة الحجازية شيء بقد ما يعيبها فقدان الحلقة التاريخية التى تصل أواخر العهد العثمانى بالعهد الحاضر فى الحجاز فأنت تقرأ العصر الذهبى للحجاز فى كل كتب التاريخ الاسلامى فى سعة تشبع نهمك وتكشف لك عما يهمك من نواحيه المتعددة كما تقرأ مثله عن عصور سبقته ممعنة فى أعماق الجاهلية وعصور لحقته فى ظلال الدولة الاسلامية إلى جزء غير قليل من العهد العثمانى ، ثم نفقد الحلقة وتقع فجأة فى تيه يباب ممسوخ مظلم المسالك لا تكاد تتبين فيه إلا بصيصاً لا يهدى إلى جادةٍ ولا يساعد على فكرة .

. . . أجل ، فقد كان المؤرخون إسلاميين فى كل العصور يعنون بالتاريخ فى بلادنا كحدث إسلامى . فهم إذ وسعت دراستهم وإذ تشعبت ومضت متغلغلة فى جميع نواحى التاريخ فهم إنما يترسمون فى ذلك الحدث العظيم وإذا كان الحجاز وطن هذا الحدث الجليل وأبطاله أبطاله فقد نالته بالضرورة هذه العناية التى نجدها مبسوطة فى كتب التاريخ الاسلامى .

بيد أن هذا الحديث ما فتىء أن يعرج فى طريقه إلى الشمال فاستوطن منازل الأمويين ثم انحدر جنوباً شرق الوطن الأول فنزل فى قصور العباسيين . فعرج وراءه التاريخ يستقصيه ويترسم آثاره حتى إذا ما تشعبت فروع الخلافة وضربت فى الأرض ضرب المؤرخون وراءها جدداً ومشوا وراء أبطالها من الشرق إلى الغرب وما ان استوى الأمر للدولة العثمانية حتى مضى التاريخ خلفها وراء الحدث الاسلامى .

وفى كل هذا ترك الحجاز الوطن الأول غفلا ولا يذكره التاريخ إلا عرضاً ولا يعنى بأحداثه إلا كما تعنى أنت بمناسبة خارجية تعترضك أثناء الحديث عن موضع خاص بك .

على هذا بقى فى التاريخ من ناحية الحجاز ثلمة ، وبقيت فيه ثغرة مفتوحة يتيه الباحث فيها ويضيع فى قفرها المجدب .

فأنت إذ يبدو لك اليوم أن تقرأ الحجاز كتاريخ متصل يبدأ بالجرهمين على اعتبارهم بناته قد

تستطيع أن تشبع رغباتك فى معلومات وافية عنه متسلسلة إلى اليوم الذى بزغ فيه الاسلام ، وتستمر فى ذلك إلى اليوم الذى غادرته الخلافة ثم يقصر بك . حتى إذا جئت القرون المتوسطة والعصور التى سبقت أيامنا بنحو قرنين فقدت دفعة واحدة كل أثر يدلك عليه تقريباً ، وأصبحت أمام مجهول تنقطع فيه الصلة أو تكاد ، وتفقد الحلقة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر الحالى .

إذاً فنصيب مكتبتنا الحجازية هو فى هذا القصور الفاضح وليس ثمة مأخوذ به فى نظرى سوى جماعة العلماء فى بلادنا فى القرنين السابقين على عصرنا إذ المعروف أن التعليم خلالهما كان مقصوراً على من يسمونهم العلماء أو طلبتهم فليس هناك من يمكن أن يكتب التاريخ من الحجازيين غيرهم : لا أدباء كانوا يومها بالمعنى الواسع اليوم ولا بحاثين ولا غيرهم ممن يصح مطالبتهم بمثل ذلك ولقد كان لغرمائنا هؤلاء جهود لا يصح غمطها بالمرة . إلا أن التاريخ كان مظلوماً معها إلى أبعد حد فى الظلم مما أنتج هذه الثغرة المفتوحة . فقد شوهد إنتاجهم فى كثير من علوم الدين وملأت مجلداتهم فى اللغة وقواعدها وبلاغتها وبديعها وبيانها قسما كبيراً من زوايا المكتبة الحجازية ولم ينسوا أن يعنوا مع ذلك بالشعر وغزلياته بالخصوص فتركوا لنا تراثا ضافيا بأبدع ما وصفت به العيون الجميلة والأهداب الطويلة والخواصر الرقيقة وما تندَّر به أدباؤهم وفقهاؤهم وأصحاب النكات فى أيامهم ، وهكذا هكذا ، إلا التاريخ فقد بقى مفقود العناية فى غير ما شذ .

أجل فقد شذ أعلام من غرمائنا فعنوا بالتاريخ الحجازى وتحدث به بعضهم إلى الأيام التى عاشوا فيها فى القرنين السابقين وكاد هذا ينفعنا لو لم يقصره كذلك على الكعبة وأصحاب كسوتها والمساجد والمآثر وبنايتها والأمراء وغزواتهم وتناطحهم السياسى . فجعلوا فيه كثيرا من العناية من الناحيتين الدينية والسياسية ولم يزيدوا فبقيت المسألة بذلك فى مكانها لم تتقدم شيئاً فهناك النواحى الاجتماعية وسير العلوم والعمران والعادات والأفكار أشياء مغفلة لا أثر لها فيما كتبوا .

قد تمر بك عرضاً ودون سابق إصرار نتف فى شؤون الاجتماع والعمران فى ثنايا بحوثهم عن كساوى الكعبة أو نطاح الأمراء ، لكنها لا تزيد على كونها تزيد فى أوارك وتعظم فى ظمئك وتزيد فى بيان حاجتك إلى مثل هذا السياق لتتعرف به شيئا مما يهمك من أخلاق أجدادك ومدى تفكيرهم وعمار بلادك ومدى تطورها .

هذه الثغرات المفتوحة هى العيب الفاضح الذى يظل يلازم مكتبتنا . وهى الشىء الذى نشارك اليوم نحن فى وزره ويتحمل مسؤوليته هذا الشباب المتعلم بيننا .

ليكن لأجدادنا عذرهم فى تنحيهم فى بحوثهم إلى ما يعتقدونه غاية فى التاريخ ، أما نحن فلن نجد ــ إذا تحرينا العدل ــ ما يَصح أن نسميه لنا عذرا بعد أن بدأت تتفتح أمام العالم جوانب فى التاريخ ما كان يعرفها أجدادنا وبعد أن أصبح من أغراض التواريخ ما لم يكن فى يوم ما غرضاً .

نحن مسؤولون أمام الحق والواقع عن هذه الثغرة ومطالبون بها ويعتبر تقاعدنا عنها جناية لا تغتفر ولا تنتحل لها الاعذار التى تلمسناها للسابقين من أجدادنا . لنخرج من هذا الجمود فنعمد أولا إلى مطمورات المكاتب العامة فنغوص فى لجاجها باحثين كما يتغلغل غواصو اللؤلؤ فى لجج الأمواه وبين شعاب القياع بحثا وراء آثار بلادنا الاجتماعية الضائعة وبين المطولات ملتقطين الواحدة أثر الأخرى حتى نعقد من ذلك ما نسد به الثغرة ونكمل به النقص .

وفى يقينى أن أقوى الدوافع لخدمة هذا الغرض هو التشجيع وتقدير الأيدى العاملة بمختلف أنواع المشجعات والمغريات . أما أننا نقابل على الدوام كل محاولة فى هذا الصدد بشىء من الفتور والاعراض حيناً ، والاستياء والاستهجان أحيانا فذلك سبيل يحول على الدوام دون الوصول إلى نتائج نافعة ، ويساعد على مباركة الاقحال والامحال ويبقينا لا نتقدم نحو الأمام خطوة واحدة .

ويحسن بعد هذا السياق أن أقدم أول محاولة يقوم بها شاب حجازى هو السيد ابراهيم هاشم الفلالى فيقدم فى كتابه هذا رجالات الحجاز وأحسبنى أستطيع أن أمضى طويلا فى دعواى بأنها محاولة مشكورة نحو الغرض الذى أشرنا إليه .

أجل فشابنا الذى نقدم اليوم لمؤلفه روح حساسة تتحرق غيظا على هذا الماضى المبعثر ، وتتألم لاندثار معالمه وتناسى حقائقه الناصعة وهو فى الوقت نفسه يشعر نحوه بقدسية ويمضى فى هذه القدسية محضا فى عصبية حادة الغيرة ينتزع فيها الرجال من أقطاب الاسلام ــ كما سترى ــ انتزاعا ليردهم إلى أصولهم فى الحجاز وليضفى عليهم أثوابا حجازية بحتة ، ويروح على حساب ذلك يتغنى بالحجاز بما يهز العواطف ويرنحها وكأنه فى هذا يريد أن يتأثر من هذه الأجيال التى دمجت الحجاز ورجاله ثم أفنته فى جامعة واسعة فناء رآه جديراً بالبعث . وكأنه فيه أراد أن يقسرك على الاعتراف بكينونة خاصة لها ميزتها فى تاريخ أجيال الاسلام ، ولها استقلالها الذى يجب يكون محلا للفت النظر بصفة خاصة ، ونحن إذا كنا لا نريد أن نناقش المؤلف فى هذه الحدة كثيراً لأنها عقيدته التى لا ينفع النقاش فيها فإننا نريد أن نعتبره عاملا من عمال هذا الصرح الذى ننعى إهماله كما نعتبره مؤلفا حجازيا يضع اليوم لبنة هامة فيه .

صحيح إذا ادعى مدع أن الغرض الذى نرمى إليه ونادى بمحاولة السير نحوه أبعد من هدفه فقد كنا نحرص على أن يكون لنا رجال يبحثون للتاريخ الحجازى أكثر مما يبحثون نواحيه الاجتماعية ، وصاحبنا اليوم يقصر بحثه على تراجم رجالات الحجاز وليس ذلك كل شيء فى غرضنا الذى ندعوا إليه – أقول : فى مثل هذا الادعاء صحة لا ننكرها كما أن إلى جانبها فى عمله هذا حسنة جديرة بالتقدير والشكر .

فحضرته فى سن هذا التوجيه الحجازى المحض فى مؤلفه عامل يضع لبنة فى صرح هدفنا وهو فى سرد هذه الروح الحادة فى عصبيتها ينشىء لنا أنغاماً قد تصح لتساوقها فى مؤلف واحد أن تعتبر مهيجا يحرك الأعصاب للعمل فى البحث عن هدفنا البعيد بين التراث فى الأطباق المطمورة ، لنقدر إذاً جهده كغيور متحمس فى غيرته ولنقابل لبنته بما يستحق من عطف ولنؤجل حسابه نزولا على قاعدة البعد عن استهجان كل ما يصدر منا وأملًا فى تشجيعه وإغراء غيره على المضى نحو الهدف المنشود والغاية المطلوبة .

فى ١٣٥٦/٩/١٥

سباعى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمهيد

التفاخر : غريزة فى الطبيعة الانسانية وقد قص علينا القرآن الكريم نوعاً من أنواع المفاخرة فى قوله تعالى : « أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » وفى قوله تعالى : « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ » الخ ، وكما يفخر الانسان على أخيه الانسان ، كذلك تفتخر الأمم والشعوب بعضها على بعض ، إما بخصب أراضيها ، أو بوفرة رجالها ، أو بضخامة ملكها ، أو بما أحدثت فى العالم من حضارة ، أو بما أشادت على وجه الارض من معالم المدنية . لذلك نرى فى كل وقت افتتان الأمم بهذا التفاخر ، وتفننهم فى إبرازه على مختلف الأساليب .

تعتز كل أمة بجنسيتها ، وتدعى أنها منحدرة من خير الناس وأنها من سلالة أكرم العناصر البشرية . ويبالغ الزعماء فى الوقت الحاضر فى هذا الادعاء مبالغة تكاد تكون منكورة إن لم تكنها . فهم لم يقفوا فى الاعتزاز بجنسيتهم عند حد التقديس للأبطال وإقامة التماثيل فى الميادين العامة ، تخليداً لذكرى المجد والعظمة فى أشخاص عظمائهم بل يذهب بهم الغرور إلى أبعد حد ممكن ، كما ذهب الهتلريون إلى التفوه بهذه الجملة الضخمة التى جعلوها شعارهم « ألمانيا فوق الجميع » . والفاشيون ملأوا الدنيا ضجيجاً بهتافاتهم « الدنيا لنا » ، والكماليون يقولون:« إذا قدر — لا سمح الله — على تركيا بالفناء فإن الكرة الأرضية تتحطم » وينشط المؤلفون فى تأليف الكتب تأييداً لكل ذلك فى أساليب منمقة جذابة وتعابير رشيقة أخاذة ، وكل أولئك يغتفرون لأنفسهم ذلك ماداموا يلهبون به عواطف شعوبهم فتجد — وتجتهد وتسعى متكاتفة متضامنة لنيل الغاية التى رسموها فى برامج أعمالهم ، ولئلا تخمد هذه الجذوة التى أشعلوها فى نفسية الشعب تراهم دائبين على البحث والتنقيب

فى بطون الأسفار ، وفى أعماق الحفائر ، وفى جوف الأرض ، علهم يجدون سيرة مغفلة ، أو حضارة مندثِرة ، أو أثراً قديماً يتخذون منه دعاية واسعة وبرهانا قويا لتبرير ما هم سائرون إليه .

والحقيقة : أن فى ذكرى المجد الماضى والتغنى به أكبر حافز للأمة على النهوض ، وما من أمة الا ولها ماض يحفل بأحداث رجالها وتاريخ يزجر بأعمالهم ، ولكن جرت سنة الله فى خلقه الّا تستمر الأمم على حال واحدة ، فلابد لكل أمة من أيام تسعد فيها ، وأيام تشقى بها ، ولكل شعب فترة يغفو فيها ليفسح طريق العمل لغيره من الشعوب حتى إذا أمضه النوم ، وتجافت جفونه من المضاجع ، وشعر بأن كرامته كادت أن تمتهن وحرمته أشرفت أن تستباح نهض لاستدراك الأمر ، واستئناف الجهاد ، ويطول جهاده أو يقصر بحسب ما فرط ، ولكنه ينال بحسب ما يبذل من تضحية ونشاط ، وربما عادت سيرته الأولى وتبوأ مكانه القديم .

وقد دار هذا الدور الطبيعى فى حياة الشعوب على الشعب الحجازى فتوالت عليه الأحداث وأضفت عليه سباتاً عميقا حتى ظن أنه لا يفيق منه ، مع ماله فى تاريخه من المواقف المشرفة والبطولة المتفوقة ، والأعمال الجليلة فى الماضى المجيد .

وقد لا يستطيع الفرد أن يتكلم عن كل ما للحجاز من مفاخر ، ولا يتحدث عن كل من أنجبته تربته الزكية من بُناة المجد والعظمة ، دون أن يغادر منهم أحداً لاحتياج مثل هذا العمل إلى وقت طويل ، واطلاع واسع ، ومراجع عديدة لا يتيسر لفرد ما جمعها .

فإن الحجاز على ضيق رقعته وقلة تعداد نفوسه بالنسبة إلى الأمم الكبيرة أنجب من الرجال ما لا يقل عن أى أمة من ذوات العز التالد والفخر المجيد ، فلقد مارس أبناء هذا الشعب جميع الأعمال الحيوية ، بمهارة فائقة ، فى جميع الميادين التى اقتضت ظروفهم أن يمارسوها ، ساسوا الشعوب ، وفصلوا فى الاحكام ، وقادوا الجيوش ، وصارعوا الابطال ، وفتحوا الحصون ، ومصروا الامصار ، وقاموا على الملك ، ونطقوا بالحكمة والشعر ، وحملوا علم الحرية والإخاء والمساواة بين الناس ، عدا من اشتهر منهم بالزعامة والخطابة والدهاء والكياسة ، ومنهم من أعرض عن الدنيا واشتهر بالتقوى والعبادة والزهد والورع حتى صاروا المثل الأعلى للمقتدين بهم ، ومنهم من ضرب بسهم وافر فى الظرف والفكاهة ، ومنهم من صار لهم القدح المعلى فى الفنون الجميلة كالغناء والتوقيع على الآلات ، وفريق عالج الفلسفة وترك فيها آثارا عرف بها وعرفت به ، وغير ذلك من الأعمال التى وفقوا فى إجادتها إلى أبعد حدود التوفيق مما لم يسبق له مثيل ، واغتصبوا بذلك إعجاب العالم

١

اجمع . كل هذا دعانى لأن أفكر فى تأليف سلسلة من الأبحاث يضمها مؤلف مثل هذا ، وإن لى من العزم الأكيد ما يجعلنى لاأفتر — إذا تهيأت لى الأسباب — عن مواصلة البحث ليتسنى لى أن أصدر عدة كتب تحت هذه التسمية التى سميت بها هذا الكتاب الذى هو باكورة رغبتى فى هذا السبيل ، فعسى أن يكون كتابى هذا – على ما فيه من اقتضاب الكلام وعدم التوسع فيه – حافزاً يغرى على البحث والتنقيب عن آثار رجالات الحجاز الأفذاذ الذين أنجبتهم هذه الأمة العربية الأصيلة ، فيقدم لنا طائفة منهم فى كتاب أضخم وصورة أوضح ، فمن واجب الحجازيين اليوم وهم على أبواب نهضتهم الحديثة ، أن ينقبوا ويبحثوا عن آثار رجالات الحجاز إحياءً لمجدهم المندثر وعزهم الضائع ليروا كيف تبوأ أجدادهم تلك المكانة العالية وأى طريق سلكوا للوصول إلى ما وصلوا إليه ، فيسيرون سيرتهم ويحذون حذوهم ، وما على هذه السلالة النبيلة المتحدرة من أولئك الأسلاف العظام ببعيد أن يبلغوا ما بلغ آباؤهم ويعيشوا كما عاشوا أعزةً كراماً ، فإن تلك الأرواح الطاهرة التى ورثناها عن الآباء والتى تسرى فى أجسامنا سريان الكهرباء فى الأسلاك ، لا تلبث إذا ما جد الجد أن تسطع بضياء تخشع له القلوب والأبصار .

المــؤلف



الحجاز

جبال مشمخرة ، وحرار مستقرة ، تطاول السماء بشموخها ، وتغالب الأرض برسوخها لا تؤثر فيها الهوامل ، ولا تنال منها الزلازل ، تكتنفها دحال قاتمة ، وفجاج واجمة ، ومفاوز متجهمة ، لم يفتضها زارع ولم يستثمرها طامع تحتضن بين أبعادها المترامية الأطراف : أدغالا ، وغابات ، نبت على أديمها الشيح ، والخزامى ، والقيصوم ، والبشام ، والنجم ، والعرعر ، والأثل ، والاذخر ، والسدر ، والحرمل ، والطِّرف ، والحنظل . إن جاده الغمام بقطره اخضر ، وإن كف عنه ذوى واضمحل ، زويت بين هاته الوهاد والأنجاد واحات تتفجر أجوافها بالماء النمير ، وتسيل عيونها بالكوثر والسلسبيل ، قامت على حافاتها باسقات وأشجار تفوح أغصانها عن أعطر الأزهار ، وتتفتح أكمامها عن أطيب الأثمار ، يحوم حولها الفراش والنحل ، ويختلف إليها الوابل والطل ، فتفيض الآبار ، وتجرى الجداول ، وتسجع الورق ، وتصدح البلابل ، يترقرق فى أكنافها فاتر الهواء ، ويحمد فى أفيائها الاصباح والامساء ، انتثرت هنا وهناك مدن شاهقة البنيان ، آهلة بالسكان ، تعج أسواقها بالممتارين ، وشوارعها بالغادين والرائحين ، دائمة الحركة مستمرة الجلبة ، توفر فيها الأمن والرخاء ، والأنس والهناء ، يرن فى أجوازها الأذان ، ويتلى فى مساجدها القرآن ، وتزخر مدارسها بطلاب العلم والعرفان ، يحيط بهذه المدن أكواخ من اللبن ، وأخباء من الوبر ، تلك هى بيوت الفلاحين ، وحلل الأعراب ، حيث لا ترى فى أفنائها إلا امرأة تغزل ، أو جواداً يصهل ، أو راعياً يحدو ، أو حَملا يعدو ، أو ظليما يمرح ، أو بُهمْاً ترعى ، أو إبلا ترغى أو كلبا يقعى . ثم خلاء ينبسط لا يحجب انبساطه سوى سفوح الكثبان وخيوف الأودية ، ولا تجد عندها أنيساً ولا تسمع حسيساً غير أصداء تتردد من أرياح تصفر ، وسباع تزأر ، وذئاب تعوى ، وغربان تنعق ، وحُمر تنهق ، يطبق على كل ذلك أفق واسع يتنفس صبحه عن شمس تسطع ويتمخض ليله عن زهر تلمع ، لا سحاب يحجبها ، ولا ضباب يغيبها .

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

بعث الله من الحجازيين أعظم الأنبياء شأناً ، وأجلهم خطراً ، وأكرمهم عليه ، وأفضلهم عنده ، ذاك هو محمد بن عبد الله .

إجتباه المولى جلت قدرته من بين شعاب مكة وصحراء الحجاز ، وجبال تهامة ، ليؤدى رسالته العامة إلى كافة الخلق بعد أن جرت سنته في أنبيائه بأن يبعث كل نبي إلى قومه دون غيرهم من الناس .

صدع هذا النبي المكى بأمر ربه ودعا الناس إلى الاسلام الذى رضيه الله دينا لعباده ، فلم يقصر دعوته الصريحة إلى دين الحق على رعاة الابل من العرب ، بل دعا بنفس تلك الصراحة ذوى الملك والسلطان من أكاسرة الفرس وولاة الفرنجةو وقياصرة الرومان ، ولقى من عنت الناس بدعوته وسخريتهم به ، واضطهادهم له ما هو مسطور في السير ، ومشهور في التاريخ ، فما وهى لا وهن بل زاده ما لقى من التعذيب والتشريد في سبيل المهمة التى اضطلع بأعبائها قوة وصلابة ، وجاهر بعقيدته وجاهد دونها وضحى بكل راحته وهنائه في سبيلها . ولم يخش العرب في نعرتها ولا الفرس في دولتها ؛ ولا الروم في صولتها . ولقد أراده قومه أن يكون ملكاً عليهم ؛ أو زعيماً لهم ، أو مثرياً فيهم ، على ألا يعيب أديانهم التى ورثوها عن آبائهم ، ولا يشتم آلهتهم وألا يسفه أحلامهم — أو يقتلوه — وجعلوا عمه أبا طالب وسيطاً بينه وبينهم ، فما انخدع لزخرف القول ، وما آثر العافية ، ولا هاب الموت الزؤوام ، وأجاب إجابة رددتها الأجيال وصفقت لها الدهور : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » فطأطأت له الرؤوس إجلالاً وإكباراً ، وارتد عنه غلف القلوب مخذولين أمام هذه العزيمة الجبارة يعلوهم الصغار ، ويحف بهم الهوان ، وعلت كلمة الحق رغم الكائدين لها والمعاندين لصاحبها ، والتهمت كل ما أمامها ، مما لفقّه ذوو الضلالة من زور وبهتان وأتت عليه حتى تركته أثراً بعد عين .

وأورث الله العرب بفضل هذه الدعوة الصريحة الحقة التى ألهبت عواطفهم ، ووحّدت كلمتهم ،

وثبّتت أفئدتهم ، وجمعت أشتاتهم : سواد فارس ، وإيوان كسرى ، ومشارف الشام ، ووادى الفراعنة ، وتربعت لغة الكتاب الذى جاء به محمد من عند ربه على دست الدولة الاسلامية ، فوحّدت لغة التخاطب بين هذه الأمم المبلبلة الألسن وأقامت تعاليم محمد العادلة الرحيمة قسطاس العدل بين الناس ، فساوت بين الصعلوك والأمير ، والغنى والفقير ، فاعتنقها الناس رغبةً فيها لا رهبةً منها وخالطت حلاوتها قلوبهم فاستعاضوا بلغاتهم لغة القرآن ، وبدياناتهم دين الرحمن .

ورفرفت بفضل محمد ﷺ على العالم راية الإخاء والسلام فلا ميزة لجنس على جنس ، ولا تعصب للون على لون و « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

على هذه الدعامات الخلقية المتينة أقيمت أسس الحضارة الإسلامية في مختلف الربوع والأقاليم التى وطئتها خيول المسلمين .

وكان من آثارها تشييد قصور الزهراء والحمراء في الأندلس وأحداث مدينتى الكوفة والبصرة في عهد عمر ، ومدينة بغداد في عهد المنصور ، ومدينة القيروان في شمالى افريقية في عهد معاوية ، وبلوغ دمشق قمتى المجد والعظمة في عهد الأمويين ، وغير ذلك من آثار النبوة الخالدة وعز الاسلام التالد . ويعود الفضل في كل ذلك إلى واضع حجر الأساس في هذا البناء الضخم « محمد بن عبد الله » ﷺ . بقيامه بتبليغ الدين الصحيح الموحى إليه من السماء ، ذلك الدين الذى اختاره الرحمٰن جل وعلا قانوناً تسير عليه الأمم في معاملاتهم ، ونبراساً يستضيئون به في أمور معاشهم ومعادهم ، وبما بثّه ﷺ من روح العزيمة والكفاح والبطولة في أتباعه السائرين على نهج دينه الحنيف .

بعث محمد ﷺ ، فكانت بعثته شعلة مقدسة أنارت ظلمات الكون الدامسة وكان في بعثته أعظم منقذ للإنسانية من ويلات كادت تودى بحياتها ، حيث استعلى ذوو العرش والتيجان وساموا الناس الخسف وطغوا وبغوا ، ولم يبق للمستضعفين في الأرض ملجأ يلجأون إليه ، وعمت الفوضى وأنذرت بالخراب ، فظهر صاحب الدعوة الإسلامية في الوقت المناسب ، وفرق بسيوف دعوته جنود الظلم والعسف ، وشتت عساكر الجور والطغيان فثلت تلك العروش وطوحت تلك التيجان وأقيم على أنقاضها ميزانها العادل الرحيم ، وأتت النَّصَفَة لأهل الأرض من الحكيم العليم .

ولد ﷺ بمكة من أبوين كريمين عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وآمنة بنت وهب بن زهرة ، وكان مولده لإحدى عشرة ليلة خلون من ربيع الأول عام ٥٧١م ودفن بالمدينة المنورة وكانت وفاته عام ١٣ هـ/ ٦٣٢ م صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأرضاه عنا خير ما أرضى نبياً عن أمته .

أبو بكر الصّديق رضي الله عنه

أول خليفة حجازى أجمع المسلمون على إسناد أمرهم إليه بعد وفاة النبى ﷺ فقبض على زمام هذه الأمة الاسلامية الفتية قبضة الحكيم الرشيد ، ووجهها توجيهاً حميداً عاد بأحسن النتائج على مستقبل الأمة ، بما دل على مقدرة أبى بكر الممتازة وكفاءته النادرة فى توطيد دعائم الخلافة ، وبعد نظره فى تقدير مصائر الأمور .

بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لتتويج سعد بن عبادة ملكا عليهم ، بيد أنهم وهم على وشك انعقاد الأمور فوجئوا بحضور أبى بكر يصحبه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح وما كادت تطأ أقدامهم أرض السقيفة ، حتى انتقل أبو بكر من بين صاحبيه . وقام خطيباً فى هذا الحشد الحاشد فقال : يا معشر الأنصار إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء واختاروا أحد هذين الرجلين — وأشار إلى عمر وأبى عبيدة — فبايعوه ، فقال له عمر : تعست أمة تبايع غيرك يا أبابكر وأنت فيهم ثم ضرب على يده فبايعه وازدحم الناس عليه يبايعونه .

وارفضَّ جمع المسلمين مغتبطين بخليفتهم ، وهكذا وفق أبوبكر للمرة الثانية بعد وفاة الرسول فى تهدئة الخواطر وإرجاع السكينة إلى النفوس .

أما المرة الأولى فبخطبته التى أعاد بها للناس صوابهم عندما مات محمد ﷺ وأصاب الناس ما أصابهم من الجزع والفجيعة والذهول حتى أدى الأمر بعمر أن يخترط سيفه ويهدد بالقتل كل من يقول إن محمدا قد مات ، فتدارك أبوبكر ذلك الموقف بخطبته المشهورة التى يقول فيها : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وتلا قوله تعالى : « وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

فثاب للصحابة رشدهم وعلموا الحقيقة التى لا مفر منها للأحياء ، بهذه السكينة وبهذه العقلية التى لا تزعزعها الحوادث ، امتاز أبوبكر على سائر الصحابة وبنفس هذه العقلية التى لا تتأثر بما يحيط بها من الاعتبارات السطحية ، والتى ينظر بها من بعد كيف يجب أن تسير الأحوال طبق رغباتها للمصلحة العامة . سير أبوبكر جيش أسامة إلى البلقاء لقتال الروم بعد أن أوشك أهل الرأى أن يجمعوا على عدم توجيهه لاحتياج الدولة الناشئة إلى هذا الجيش فى محاربة المرتدين ، ومانعى الزكاة من العرب ، فأبى الخليفة العظيم إلا تنفيذ ما كان النبى ينوى تنفيذه قبل وفاته فتظهر فيما بعد صحة هذا النظرة ونجاح هذه الخطة المحكمة إنما كانت إلهاماً لمحمد فيما قبل ثم توفيقاً لأبى بكر فيما بعد حيث ان كثيراً من العرب الذين كانوا يراودون أنفسهم على الردة عدلوا عنها عند ما رأوا جيش أسامة هذا يذهب إلى الشام قائلين « لو لم تكن للمسلمين قوة لما ذهب مثل هذا الجيش » .

اشتهر ابوبكر رضى الله عنه باللين وحب المسايرة ولكن صلابته وعدم تفريطه فى الحقوق والواجبات يتجليان فى جوابه للصحابة ، حينما أرادوه أن ينقص فى نصاب الزكاة خشية أن يتكالب العرب عليهم إذا هو استعمل الشدة فى الطلب وتعود العروبة إلى جاهليتها الأولى بعد أن أنعم الله عليها بالإسلام : فيقول « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه للنبى ﷺ لحاربتهم عليه » .

هذه الصلابة العجيبة ، فى مثل ذلك الموقف الدقيق ، من وحى تلك العقلية الممتازة ، التى تعرف كيف تضع الأشياء موضعها .

هذه العقلية التى يتمتع بها أبوبكر فى تفكيره ، والتى تكاد تكون فى جميع أعمالها كأنها ملهمة من السماء ، لم تمنع أبابكر من أن يقول فى خطبته التى استهل بها عهده فى أول يوم أسند إليه الحكم « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوموه بسيوفكم » . . منحة من السماء هذا العقل الذى أوتيته يابن أبى قحافة .

رأى بثقاب فكره ، وبعد نظره وحدة ذكائه وحسن تقديره لعواقب الأمور أن محمداً صادق فى رسالته ، وإن أجمع الناس على تكذيبه وأن دعوته ستنتشر وتعم بالرغم من المعاندين لها والساعين فى كبتها والعاملين على إخمادها وأن الناس سيدخلون فى دين الله أفواجاً وإن طال اعراضهم . وأن عباد الأوثان الذين يسخر منهم أبوبكر فى قرارة نفسه ويهزأ بهم وبآلهتهم مهما بلغت قوتهم لا يستطيعون أن يردوا محمداً ولا أن يقفوا فى سبيل دعوته التى أمر بتبليغها ، وأن الله سيظهر دينه

على الدين كله ويمحق الشرك وأهله ، هداه تفكيره السليم إلى كل ذلك ، فبادر إلى تصديق الرسول وآمن بما جاء به مقتنعاً بأن دين الاسلام هو الدين الحق الذى يجمل بمن هو فى مثل تفكيره وتقديره أن يتبعه ويدين به فاطمأنت له نفسه وارتاح بإيمانه ضميره ، فلازم محمدا ملازمته لظله وصدقه فى كل ما أخبر به وشاركه البأساء والضراء ، هذه القوة العقلية التى يستضىء بها أبوبكر فى جميع تصرفاته هى التى رفعته الى مقام الصديقين .

ولد رضى الله عنه بمكة عام ٥٧٢ م ودفن بالمدينة عام ١٥ هـ وكانت مدة خلافته سنتين ونصفاً ثبت فى أثنائها دعائم الخلافة الاسلامية بالجزيرة العربية ، وفتح خلالها مدينة الحيرة بالعراق وبصرى بالشام وكان فتح هاتين المدينتين باكورة الفتوحات الاسلامية فيما بعد رضى الله عنه وأرضاه .



عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عجيب أن أتصدى فى مثل هذه العجالة للتحدث عن هذا الرجل العظيم ، والصحابى الجليل ، والخليفة الفذ ، عمر بن الخطاب ، بعد أن لهجت بذكره ألسنة الأجيال ، وشغلت هذه الشخصية العظيمة أفكار العلماء السنين الطوال يتلمسون عظمة عمر ولا تجد مكتبة من مكتبات الشرق والغرب تخلو من عدة أسفار لا تتكلم إلا عن عمر ، وعدل عمر ، وعظمة عمر ، أجل فلقد كان عمر عظيماً بكل ما تشتمل عليه معانى العظمة وتتجلى هذه العظمة فى تصرفات عمر ، وكلمات عمر ، وحركات عمر ، وكل شيء يصدر عن عمر ، وكما كان عمر عظيماً فى إسلامه كان كذلك عظيماً فى جاهليته ، يدلّ على هذا قول النبى ﷺ فيه « اللهم أعز الاسلام بعمر » [1] انظر لعمر وقد أزمع الهجرة إلى المدينة يتحدى جموع قريش ــ فى الوقت الذى كان يهاجر إليها أصحاب محمد خلسة ــ « يا معشر قريش إنى لاحِق بمحمد فمن أراد أن تثكله أمه فليلقنى فى بطن هذا الوادى » تعرف مبلغ اعتداد عمر بنفسه ، وإذا علمت أن أحداً لم يجرؤ على لقائه ، ظهر لك إلى أى حد كان يخشى من بطش هذه الشخصية الجبارة .

واعجب ما شاء لك الاعجاب بعظمة عمر وهو يقول للنبى ﷺ فى اليوم الذى أسلم فيه « ألسنا على حق إن متنا أو حيينا ففيم الاختفاء ، والذى بعثك بالحق لنخرجن » وكان المسلمون يجتمعون بدار الأرقم لأداء الصلاة مع النبى سراً . فخرجواميممين المسجد الحرام فى صفين على أحدهما عمر وعلى الآخر حمزة ، فكانت مفاجأة قوية هلعت لها قلوب قريش وصدموا بإسلام عمر صدمة عنيفة لم يصدموا بمثلها فى حياتهم .

تتمثل الرجولة الحقة بأروع مظاهرها فى شخص عمر فلقد كان رضى الله عنه يلتذ لمقاومة الأعداء ويأنف من سيماء الضعف ولذلك قال لخاله « العاص بن هاشم » يوم أجاره من كفار قريش « جوارك مردود عليك » [2] وآثر أن يضرب ويضرب فى سبيل الله .

(١) عمـر بن الخطاب لابن القيم .
(٢) راجع عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

ولما أراد النبى ﷺ إبرام صلح الحديبية جاءه عمر وقال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل قال بلى . قال أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار قال بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ، ولم يحكم الله بيننا وبينهم . قال يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً .

* * * *

تولى عمر أمر المسلمين بعهد من أبى بكر ، فامتد نفوذ المدينة فى عهده إلى حدود الصين ، فقد افتتحت جنود عمر : فارس وإيران وبلخ وفرغانة وبلاد الديلم وافتتح العراق كله وكور الشام كلها و« وطئت خيله أرض الرى وافتتح عامتها » [(١)] وفتحت جنوده مصر العظيمةوبرقة وطرابلس ، وحملت إليه الغنائم والأسلاب وسيقت إليه الأسرى والسبايا ، وكان مما حمل إليه تاج كسرى وبساطه المرصعان بالدر والجوهر ، وبلغت المدينة فى عصره أوج عزها وشاهدت أسواقها بطارقة الروم ، ودهاقنة الفرس يباعون فيها بأبخس الأثمان .

كان عمر حازماً شديد الحزم ، لذلك خشى منه الناس عند ما عهد أبوبكر إليه بالخلافة حتى قال بعضهم « استخلف علينا فظا غليظا » [(٢)] ولكن عمر أخلف ظن الناس فيه فكان وهو خليفة أشفق برعيته من الأب الرحيم ، عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيش الشام وقال « إنى لم أعزل خالدا عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته »[(٣)] وكان عمر يمشى فى الأسواق ويطوف الطرقات ويعس الليل ويقضى بين الناس فى قبائلهم ويعلمهم فى أماكنهم « وكان ألين الناس فيما ينبغى وأقواهم على أمرهم »[(٤)] يقول الأوزاعى : إن عمر خرج فى سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر ودخل بيتاً ثم خرج فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك فقالت إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا يأتينى لما يصلحنى ويخرج عنى الأذى [(٥)] هكذا كان عمر العظيم لا يأنف من أن يميط الأذى بيده عن عجوز مقعدة عمياء ويحمل نفسه الزاد والماء اليها ، ويأتيها بما يصلحها فى سواد الليل حينما يأوى الناس إلى مضاجعهم طلبا للراحة ، وهو من علمت كيف يمضى نهاره فى

---

(١) راجع عمر بن الخطاب لابن الجوزى .
(٢) عمر بن الخطاب لابن الجوزى .
(٣) دروس التاريخ الاسلامى لمحيى الدين الخياط .
(٤) عمر بن الخطاب لابن الجوزى أيضاً .
(٥) عمر بن الخطاب لابن الجوزى بقليل من التصرف .

تصريف أمور الدولة ، وواجبات الحكومة المشرف عليها والتى يتطلع بمسئوليتها العظمى الملقاة على عاتقه .

كان هم عمر طيلة أيام خلافته سيادة العدل الاجتماعى المطلق فى مملكته فحرص على أن لا يظلم ولاته الناس وأن لا يطغى الثراء الفاحش على الفقر المدقع وأن لا يستغل الأقوياء الضعفاء . وأن لا يستأثر المسلمون بسائر أصناف العدل دون غيرهم من الرعية ممن لم يكونوا مسلمين وأن لا يميز العربى على غيره فلا ميزة أمام الحقوق والواجبات لجنس على جنس ولا لدين على دين ولا للون على لون فالكل عيال الله والجميع أمام القانون سواء وقد عمل عمر على تحقيق ذلك مخلصاً وحقق منه جانباً كبيراً ، ولو امتد به الزمن لرأينا منه أشياء وأشياء ؟ بل تعدى إلى ما هو أكبر من ذلك فقد جعل لكل فرد من أفراد رعيته حقاً فى موارد الدولة : ففرض العطاء للرجال وللنساء والأطفال الرضع ، والذى لفته لذلك ماروى عنه رضى الله عنه أنه مر ذات يوم بخباء أعرابية فوجد طفلها يبكى بكاء متواصلا فقال لها ما لطفلك ؟ فقالت أردت فطامه فقال لها أبلغ حد الفطام فقالت لا ولكن عمر لا يفرض العطاء لرضيع فقال مخاطباً نفسه : كم أمتّ من أطفال المسلمين ياعمر وقال لها أرضعيه وفرض له وكتب لعماله بفرض العطاء لكل مولود يولد فى مملكته منذ ولادته ، وذلك ما يسمونه الآن الضمان الاجتماعى فى أسمى صوره التى لم يبلغ إليها العصر الحاضر ولن يبلغ إليه إلا إذا وجد فى العالم رجال مثل عمر .

وكان عمر على سعة مملكته المترامية الأطراف وكثرة ما أفاء الله عليه من النعم مخشوشنا فى مأكله ومشربه وملبسه زاهدا فى سلطانه بقدر قيامه عليه ، يأكل من بقايا طعام الفقراء ويلبس الخشن من الثياب وينام على الرمل والحصباء ويتحمل مشقة السير على قدميه فى المسافات البعيدة إذا اقتضاه ذلك ومع كل هذا فقد كان إذا انفرد بنفسه يحاسبها على النقير والقطمير ويبكى بكاء الثكلى خوفا من الحساب فى اليوم العسير .

وكان إذا استعمل عاملًا كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار الا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول : اللهم اشهد .

وما كان عمر فى زهده ومحافظته على دينه وشدة تمسكه به جامدا فى عقليته ولا رجعيا فى أفكاره بل كان يتمشى مع كل ظرف بما يناسبه وكان يقول : لا تجبروا أبناءكم على تعلم آدابكم فإن لهم زمانا غير زمانكم ، ولم يمتنع هو نفسه من أن يقتبس من حضارتى الفرس والرومان الذين أورثه

الله منازلهم وملكه أرضهم ، بعض النظام الصالحة لدولته ، فدون الدواوين ونظم بيت مال المسلمين ، فوضع الخراج على الأرض والجزية على أهل الذمة ، وقرر المرتبات لذوى الاستحقاق ، لقد عمَّر ومصر الأمصار وأنزلها العرب وأحدث وظيفة القضاء وعين فيها رجالاً أكفاء اشتهروا بالزهد والنزاهة ، وجند الأجناد وأجرى عليهم الأرزاق وسعى بكل وسيلة لاستثمار الأرض فمسح السواد وشق الترع وأقام الجسور وأوصل الماء إلى الأرض البور لتزيد موارد الدولة وتزيد بتلك حقوق الأفراد فى الضمان الاجتماعى وبالجملة فلقد وجه عنايته للزراعة والصناعة ، وحث على طلب العلم ، وكان يحب السعى والحركة ويكره التواكل ويمقت أهله ، دخل ذات يوم المسجد فوجد رجلا به فقال له : لِمَ لَمْ تعمل لكسب قوتك فقال : صرفت نفسى للعبادة قال : فاخرج لا تُمِع دينا أماتك الله .

كان رضى الله عنه ذا خبرة واسعة فى الأمور المالية فقد خطب الناس فى الجابية يوما فقال : « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبىّ بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى خازناً وقاسماً » (١) .

وهو واضح التاريخ الهجرى للمسلمين ، وهو أول خليفة حجازى لقب بأمير المؤمنين ، مات عمر مقتولا بيد المجرم الأثيم « أبى لؤلؤة » طعنه غيلة وهو يصلى الفجر بخنجر مسموم ذى نصلين نصابه فى وسطه وطعن معه أحد عشر رجلا ، وانتحر الشقى بخنجره وقال عمر حينما أخبر بأن أبا لؤلؤة الذى قتله « الحمد لله الذى قتلنى من لا يحاجنى عند الله بصلاة صلاها » .

ولد عمر قبل « الفجار » بأربع سنين وقتل عام ٢٤ هـ أبوه الخطاب بن نفيل بن عبد العزى وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وكان آخر ما أوصى به قوله « أوصيكم بالمهاجرين فإن الناس سيكثرون ويقلون . وأوصيكم بالأنصار فإنهم شعب الاسلام الذى لجأ إليه وأوصيكم بالأعراب فإنهم أصلكم ومادتكم . وأوصيكم بأهل ذمتكم فإنهم عهد نبيكم ورزق عيالكم ، قوموا عنى » .

يا للعظمة التى تتفجر من نواحيك فى جميع أطوارك ياعمر : حقاً إنك لعظيم أنت حتى فى سكرات الموت . فلم تنسك حشرجة الروح أن توصى برعيتك حتى لم تدع طائفة ممن يخضع لسلطانك إلا أوصيت به خيراً . نم غرير العين فى قبرك فإن الناس لن ينسوك وإن طال بك العهد .

---

(١) عمر بن الخطاب لابن الجوزية

عثمان بن عفان رضي الله عنه

لما أحس عمر بن الخطاب بالموت من أثر الطعنة أداه اجتهاده إلى أن يجعل أمر الخلافة الاسلامية شورى بين ستة أشخاص لثقته بهم ورضاء الجمهور عنهم وكفاءتهم فى تسيير دفة الدولة إذا آل أمرها لأحدهم ، ولم يعهد بها إلى أحد منهم وقال إنى أكره أن أتحملها حياً وميتاً كما أنه لم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، بل قال لما أشير عليه بذلك : (حسب آل الخطاب أن يحاسب واحد منهم عن الأمة) .

وهؤلاء الستة الذين رشحهم عمر لهذا الأمر الخطير هم : عثمان ، وعلى ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن أبى وقاص .

عقد هؤلاء الستة جلسة سريعة فى بيت المسبور بن مخرمة ، وتفاوضوا فيمن يلى الخلافة منهم وقرّ رأيهم على أن يتنازل أحدهم عن حقوقه فى الخلافة بشرط أن يرتضوه حكماً ينزلون على رأيه ، فسمحت نفس ابن عوف بذلك واتفق مع سعد والزبير وطلحة بعد ذلك أن يتركوا الخلافة بين على وعثمان ، فحكم ابن عوف بها لعثمان فبايعه وأعلن ذلك فى الجمهور فبايعه الناس وبعد أن تم أمر البيعة لعثمان ، صعد المنبر ليخطب فأرتج عليه فقل « ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن ، سيجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد عى بياناً ، وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال » ثم نزل ، وما لبث عثمان أن جلس على كرسى الخلافة حتى انتقضت عليه أرمينيا فسير إليها جيشاً أخضعها ، وافتتح الجيش فى غزوته عدة مدن وحصون وقاتل أكراد (أبو شبجان) وظفر بهم ، وإذ ذاك وجه عثمان عنايته لتقوية الجيش ، فانتخب القواد الأكفاء له ، وولى على بعض البلاد النائية عنه بعضاً من أقاربه الذين يعتقد فى إخلاصهم وتفانيهم فى خدمة الدولة حتى إذا اطمأن لهذه السياسة التى رضيها لنفسه وللصالح العام تطلعت نفسه للفتح والغزو ، فأصدر أمره لمعاوية بن سفيان عامله فى الشام أن يغزو بلاد الروم ، وأمر عبد الله بن أبى سرح عامله على مصر أن يزحف على شمال إفريقية وأمده بجيش تحت قيادة عبد الله بن الزبير وأمر عبد الله ابن نافع أن يغزو الأندلس ، وأمر عبد الله بن عامر أن يتولى قيادة الجيش فى فارس وعهد إليه أن يتم فتحها ، ويقضى على دولة الأكاسرة هناك .

وكان هؤلاء القواد من زهرة الشبيبة الحجازية فى ذلك الوقت ، فثارت الحمية فى رؤوسهم ، وغلى دم الشباب فى شرايينهم ، واندفعوا متحمسين يرتلون آيات الخلود فيسطرها لهم الحجاز على صفحات تاريخه الذهبى بأحرف من نور .

كل ذلك بفضل تلك الادارة الرشيدة ، والتدبير المحكم الذى دبره ذلك الشيخ الوقور ، والخليفة الجليل عثمان بن عفان ، فى تأمير هؤلاء الشبان المتعطشة نفوسهم إلى المجد ، المتطلعة أرواحهم إلى السمو والخلود ، وتوجيههم على رؤوس هذه الجيوش الجرارة إلى مختلف الميادين الحربية فى أصقاع الأرض .

ولقد شعروا بمبلغ ثقة الخليفة بهم وقدروا حسن ظنه فيهم ، فأبدى كل قائد منهم من البسالة فى ميدانه ما تعجز عن وصفه الأقلام .

بلغ الاقدام بمعاوية ان افتتح عدة حصون ومدن من بلاد الروم حتى احتل عمورية وحاصر القسطنطينية .

وبلغت الجرأة بعبد الله بن أبى سرح وسميه ابن الزبير أن يفتتحا « سبيطلة » عاصمة افريقية فى ذلك الوقت ، وقتل ابن الزبير ملكها « جرجير » من قبل هرقل .

وتحمس ابن نافع فافتتح من البلاد الأندلسية بقدر ما افتتح قريناه من شمال افريقية وتوغل ابن عامر فى أرض فارس حتى امتلكها كلها وطرد يزدجرد آخر ملوك الفرس منها ، وبذلك قضى على دولة الأكاسرة فيها كما عهد إليه عثمان .

* * *

اغتبط خليفة المسلمين بهذه الانتصارات الباهرة التى أحرزها قواده فى مختلف الميادين واتسعت بذلك رقعة ملكه ، وجبى إلى المدينة المنورة خراج الارض من كافة الأنحاء وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، ونعم الناس فى بحبوحة الأمن والرخاء ، وأراد ربُّك أن يُسطّر فى تاريخ المجد الحجازى فوزاً جديداً على يدى هذا الخليفة الطيب النفس ، وكأن المقادير أرادت أن تملى على الأمم درساً تشهد به على تفوق العنصر الحجازى وبطولته فى البر والبحر ، وألهم الله الخليفة بأن يسمح لمعاوية بن أبى

سفيان بركوب البحر لفتح قبرص ، وبذلك تأسس أول أسطول حربى للدولة الاسلامية فى عهد خلفائها الحجازيين .

سار هذا الأسطول الحربى يمخر عباب البحر ، وكانت باكورة أعماله استيلاءه على قبرص وخفوق العلم الحجازى على جزر البحر الأبيض المتوسط ، وقد شهدت مياه هذا البحر كيف انتصر الأسطول الحجازى الجبار على أسطول الروم فى وقعة الصوارى المشهرة بقرب الاسكندرية وغنم أسطول عثمان فى هذه الوقعة أسطول الروم وجرح قائده قسطنطين ابن هرقل ، أما الأسطول الحجازى فقد كان تحت قيادة البطلين الحجازيين معاوية وابن أبى سرح .

* * * *

لم يرق فى أعين الذين يحلو لهم الاصطياد فى الماء العكر والذين لا يخلو منهم زمان ولا تنجو منهم أمة ، أن يروا هذه الدولة الاسلامية الفتية تبلغ هذا المبلغ من الضخامة والاتساع ويمتد سلطانها من حدود الصين إلى أطراف أوروبا ، ولا أن يؤول أمر هذه الأمم والشعوب المتعددة من مختلف الأجناس والألوان إلى أيدى رعاة الابل والشاء ولا أن يحمل خراج هذه الأرض الخصبة إلى تلك العاصمة العاصمة النائية فى بلاد العرب ، فراحوا يكيدون لها ويدسون الدسائس لقلبها وينخرون كالسوس لهدم هذا البناء الضخم الذى شيدته عزائم ابناء هذا الشعب الحجازى ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ولم يراعوا حرمة تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل نشر الحضارة الاسلامية ، وتلك الأرواح الطاهرة التى أزهقت فى سبيل إنقاذ العالم من نير الذل والاستعباد ولم يقدروا عمل هذا الشعب النبيل الذى رمى بفلذات أكباده بين براثن القوة الغاشمة والسلطة الظالمة لانتشال البشر من فظائع الفرس ، وجبروت الروم اللتين أنذرتا بالويل والثبور وكادتا توديان بحياة الانسانية قبل انتهاء أجلها . نعم فإنهم لم يراعوا كل ذلك بل جعلوا لأطماعهم الدنيئة المقام الأول من الاعتبار ، واندفعوا يحدوهم الشر لغرس بذور الفتنة والشقاق بين أبناء الأمة الواحدة ، والانصاف يقتضينا القول بأنه وجد من أبناء هذه الأمة عشاق الأمجاد الزائفة ، فساعدوا على توسيع الشقة فلووا ضمائرهم وباعو أمتهم ودينهم فى سبيل أغراض رخيصة هى تحقيق أطماعهم وشهوات نفوسهم الحقيرة . حتى كانت تلك الثورة المشئومة التى ابتدأت بقتل عثمان ، وانتهت فيما بعد بقتل على .

أودت هذه الثورة الجامحة بحياة الخليفة الصالح عثمان بن عفان ، وأدت إلى انقسام الأمة إلى

شيع وأحزاب يناحر بعضهم بعضاً ، ولا نغالى إذا قلنا انه لولا ذلك لفرض الشعب الحجازى سيادته على الكرة الأرضية بأكملها وأدى رسالته كاملة للناس كافة .

قتل الثوار الخليفة فى داره بالمدينة المنورة وهو ممسك بمصحفه يتلو فيه القرآن الكريم ، وقد مضى على خلافته اثنا عشر عاماً . وكان آخر ما تفوّه به وهو يتشحّط فى دمه « اللهم اجمع هذه الأمة » [1] رضى الله عنه وأرضاه .



(١) إحياء علوم الدين للغزالى .

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بعد مقتل عثمان اجتمع المهاجرون والأنصار وانضم إليهم الثوار ، وذهبوا جميعاً إلى علىّ بن أبى طالب فى منزله ، وقالوا له إن هذا الرجل — يعنى عثمان — قد قتل ، ولابد للناس من خليفة ، ولا نعلم أحداً أحقَّ بها « الخلافة » منك ، فقال لهم لا تريدونى فإنى لكم وزيرا خير لكم منى أميرا ، فقالوا والله لا نعلم أحداً أحق بها منك ، ولم يزالوا يحاولونه على قبول الخلافة ، ويحاولهم على رفضها ثلاثة أيام أو خمسة وبعد مدافعة طويلة وامتناع كثير قال لهم : فإن أبيتم علىّ فإن بيعتى لا تكون سراً ولكن ائتوا المسجد فمن شاء أن يبايعنى بايعنى ، وخرج الى المسجد فبايعه الناس [١] .

* * * *

ولكن بذور الفتنة التى أصلها عبد الله بن سبأ فى قلوب أبناء الأمة الواحدة بدأت تنمو وتترعرع ، وأصبحت الشام تخاصم الحجاز ، ودمشق تنازع المدينة فى جر الخلافة الاسلامية إليها ، ومن غامض حكمة الله جل وعلا ، أن يتصدى لهذه الخصومة رجل من صميم أهل الحجاز « هو معاوية بن أبى سفيان » ويتمسك الحجاز بحقوقه مقتنعاً بوجهة نظره ، وتلج الشام فى النزاع ، وتشن هذه المنازعات حرباً ضروساً فى داخل المملكة الاسلامية ويزيد الأمر ضغثاً على ابالة انشقاق الجبهة الحجازية إلى قسمين متناحرين [٢] فيتفاقم الشر ويزيد البلاء ، ويطل شبح الموت على هذه الأمة من شرفته الرهيبة ويحصد بمنجله المريع الأرواح حصداً ، فتهلع له القلوب وتصطك من هوله الأسنان [٣] .

---

(١) راجع تاريخ الخميس ج ٢

(٢) أعنى بانقسام الجبهة الحجازية إلى حزبين متناحرين خروج السيدة عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير على الامام على وكلهم حجازيون .

(٣) يقال ان عدد القتلى فى وقعة الجمل التى بين عائشة رضى الله عنها وعلي بلغ عشرين ألفا وقطعت على خطام الجمل سبعون يداً وقتل فى وقعة صفين بين علي ومعاوية ستون ألفا راجع تاريخ الخميس ج ٢ .

ولكن علياً كان شجاعاً مغواراً لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلًا ، فهو لا يرهب الموت ولا يهاب الغمرات ، وكأن الظروف أرادت أن تختبره فهو لا ينتهى من حرب إلا لتبدأه أخرى ولا يرفض من ميدان إلا ليخوض غيره(١) ، فكان يقابل كل تلك الأهوال بمراس ثابت ، واتزان مهيب ، وإقدام رائع ، فى سبيل تحقيق المثل العليا التى آمن بها وهو صبي ووقف نفسه لها ، وآثر أن يموت فى سبيلها على أن يضع يده فى أيدى المستهينين بها .

* * * *

وكان مما امتازبه علىّ رضى الله عنه مهارته الفائقة وخبرته التامة بأمور المصارعة فقد كان له درع لا ظهر لها ، فقيل له ألا تخشى أن تؤتى من قِبَل ظهرك فقال إذا مكنت عدوى من ظهرى لا أبقى الله عليه إن أبقى علىّ ، وكان قائداً حربياً عظيماً قاد كثيرا من الجيوش وأوردها ساحات النصر والشرف ، ولم يعرف عنه أنه انهزم فى جيش هو قائده .

* * * *

وكان علي عالى الهمة عزيز النفس ، ومن أقواله الخالدة فى ذلك « الناس من خوف الذل فى ذل » ، لم تمنعه كثرة حروبه وانهماكه فى تدبير أمرها من أن يجلس إلى رعيته ، ويستمع لشكاياتهم ، ويقضى بينهم ويواسى ضعفاءهم ، ويعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، وكان من أبرز صفاته الصراحة فى كل أقواله والاخلاص فى كل أعماله ، زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة مقيماً للحدود ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، كثير الصمت ، دائم الاطراق ، وإذا تكلم نطق بالحكمة وفصل الخطاب . واستمع لضرار بن حمزة الكنانى وهو يصف علياً : كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة يقلب كفه ، ويعاتب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان والله يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله

---

(١) بعد وقعة الجمل وصفين اعتورته حروب الخوارج وكان بينه وبينهم وقائع تشيب لهولها الولدان .

مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، ويعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيته وهو فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الخائف ، ويبكى بكاء الحزين فكأنى الآن أسمعه يقول يادنيا إلى تعرفت أم الىّ تشوقت هيهات هيهات غرّى غيرى لقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق (١) .

يا الله ما أبلغ الواصف وما أجدر الموصوف ! وقد اجتمع للإمام علي كرم الله وجهه بجانب كل هذا ذلاقة اللسان ، وفصاحة البيان ، وحضور البديهة ، وسلامة المنطق لا يُسأل عن مسألة الا انبرى لحلها حلّا موفقاً لا يختلف فيه اثنان(٢) . سئل مرة عن مسألة فدخل مبادراً ثم خرج فى حذاء ورداء وهو يتبسم فقيل له يا أمير المؤمنين كنت إذا سُئلت عن مسألة كنت فيها كالسكة المحماة فقال إنى حاقن ولا رأى لحاقن ثم أنشأ يقول :

إذا المشكلات تصدين لى	كشفت حقائقها بالنظر
وإن برقت فى مخيل الصواب	عمياءلا يجتليها الذكر
مقنعة بأمور الغيوب	وضعت عليها صحيح الفكر
لساناً كشقشقة الأرحبى	أو كالحسام اليمانى الذكر
وقلباً إذا استنطقته الفنون	أمر عليها بواهى الدرر
ولست بامعة فى الرجال	أسائل من ذا وذا ما الخبر
ولكننى ذرب الأصغرين	أبين مع مضى ما غبر

عالج الأحداث التى اعتورت خلافته بحكمة ما بعدها حكمة ، ولكن قاتل الله الشقاق فإنه إذا استحكم فى النفوس ضاع فيه إصلاح الحكيم ، فقد كثر الهرج فى خلافته حتى أدى ذلك إلى قتله ، اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادى وضربه بسيف مسموم وهو يوقظ الناس لصلاة الفجر عام ٤٠ هـ فكانت مدة خلافته ست سنين وعمره ٦٣ سنة ودفن بالكوفة كرم الله وجهه .

---

(١) زهر الآداب ج ١ .
(٢) زهر الآداب .

الحسن بن علي رضي الله عنه

لو تمثل النبل وحب السلام فى شخص لما عدا شخص الحسن بن على بن أبى طالب ولو كان الآن عائشاً فى هذا القرن لكان أول من وجهت إليه جائزة نوبل للسلام ولما أبقى شيئاً من الفخر لرجال السلام الدولى المعروفين من أقطاب السياسة العالمية من أمثال « شترزمان » و « بريان » و« ولسن » .

قتل الامام علي كرم الله وجهه ، فبايع الناس ابنه الحسن بالخلافة ، وكان الجند يحبونه محبة شديدة ، ويتفانون فى خدمته ابتغاء مرضاته ، فبايعه منهم أربعون ألفاً أو يزيدون على الموت دونه ، وأشاروا عليه أن يسير بهم إلى الشام فيضمها لحوزته .

فلما علم معاوية بن أبى سفيان بذلك خرج إليه بجنود الشام ليصده عنها ولما تقارب الجيشان رأى الحسن رضى الله عنه « أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى » [1] فضن بدماء المسلمين أن تسفك على مذابح الأطماع وبعث إلى معاوية بتنازله عن الخلافة له .

لم يتنازل الحسن عن ذلة فى نفسه ، ولا عن قلة فى جنده ، ولا عن شك فى إخلاص رجاله وقواده له : يقول ابن العريف « كنا فى مقدمة الحسن على اثنى عشر ألفاً مستميتين تقطر سيوفنا من الجد والحرص على قتال أهل الشام فلما جاءنا صلح الحسن كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ والحزن » .

وقال الحسن حينما ليم على تنازله هذا « كرهت أن أقتلكم على الملك » ، وتحدث مرة فقال « كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت وتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين » .

لقد ضرب الحسن بتنازله هذا أعلى مثل عرفه التاريخ فى التضحية بالمطامع الذاتية لنشر مبادىء الأمن والسلام بين الناس فكان أعظم داعية من دعاة السلام فى العالم كله ، إن لم يكن أولهم

(١) تاريخ الخميس ج ٢

وسيدهم ، وبذلك أضاف الحجاز إلى صحائف مجده صفحة بيضاء ناصعة نقية وفاز فى حمل راية السلام فوزاً لا يقل عن فوزه فى حمل راية الحروب والفتح وكان فى كليهما يسعى لأسمى الغايات وأنبل الأغراض ، فأين دعاة السلام اليوم من مثل هذا ؟؟

مات الحسن بالمدينة المنورة ــ بعد أن أدى واجبه فى الحياة وقام بدوره الانسانى العظيم ــ قرير العين بما وفق إليه فى حياته هانىء النفس بما أجراه الله على يده المباركة من درء الفتن وحقن الدماء واتحاد الكلمة ، وبديهى أن يكون موت شاب هذه أعماله خسارة عظيمة ، فإن الأجيال ضنينة ، شديدة الضن بأن ترينا أمثاله إلا نادراً فلا غرابة إذا رأينا لوفاته رنة أسى وحزن عميقين شملت العالم الاسلامى من أقصاه الى أدناه ، ولا نكران إذا جزعت النفوس لنعيه جزعاً شديدا فلقد أسف المجتمع على فقده وشكت الأحياء من فراقه وشيع جثمانه تشييعاً يليق بمكانته ويتكافأ مع ما أسداه من يد بيضاء لخير الاسلام والعروبة ، ورثاه الشعراء بغرر قصائدهم وتبارى الفصحاء فى تأبيته بدرر أقوالهم وقد أدخله فى قبره شقيقاه الحسين بن علي وأخوه لأبيه محمد بن الحنفية وابن عم أبيه عبد الله بن العباس رضى الله عنهم أجمعين ثم وقف محمد على قبره وقد اغرورقت عيناه وأبنه بهذه الكلمة البليغة فقال :

« رحمك الله يا أبا محمد فلئن عزت حياتك ، فلقد هدت وفاتك ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى وخامس أصحاب الكسا ، وخلف أهل التقى ، جدك النبى المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء وعمك جعفر الطيار فى جنة المأوى ، وغذتك أكف الحق ، وربيت فى حجر الاسلام ، ورضعت ثدى الايمان ، فطبت حيا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك إنها غير شاكة أن قد خُير لك ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة فعليك يا أبا محمد منا السلام » وقام رجل من ولد ابن سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قبره فقال : « إن أقدامكم قد نقلت وإن أعناقكم قد حملت إلى هذا القبر وليا من أولياء الله يبشر نبى الله بمقدمه ، وتفتح أبواب السماء لروحه وتبتهج الحور العين بلقائه ويأنس به سادة أهل الجنة من أمته ويوحش أهل الحجا والدين فقده رحمة الله عليه ، وعنده تحتسب المصيبة » .

هذا قليل من كثير مما قيل فى تأبين رجل السلام ومثال النبل وصديق الانسانية « الحسن بن علي بن أبى طالب » رضى الله عنه وخلد ذكراه .

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

همد غليان الثورة التى اشتعل أوراها فى داخل المملكة الاسلامية زهاء سبعة أعوام متتابعة على يد صديق الانسانية ورجل السلام « الحسن بن علي » وصفا الجو للداهية العظيم معاوية بن أبى سفيان ، فقبض على أزمة الأمور بيد من حديد مستعملا دهاءه وحنكته فى استمالة قلوب الرعية إليه . فاستمال زياد ابن أبيه والحقه بنسبه وولاه على خراسان وسجستان والبحرين والكوفة والبصرة وعمان . وكان زياد هذا من أهل الكياسة والحزم حتى قيل فيه لو كان أبو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه ، وكان عاملا للامام عليّ على فارس — فثبتت دعائم الملك لمعاوية فى تلك الجهات وأصلح معاوية شؤونه فنظم البريد وأحدث ديوان الخاتم واتخذ مقصورة للصلاة حتى إذا استقامت له الأمور الداخلية جند جنداً وبعثه إلى شمال افريقية للتوسع بفتحها ونشر الاسلام فى ربوعها فافتتح بلاداً كثيرة وأدخلها تحت حكم الاسلام وبنى مدينة القيروان وأنزلها جند أفريقيا .

وكان لمعاوية رضى الله عنه شغف عظيم فى تعزيز القوات البحرية فأولاها جانباً عظيماً من عنايته . ونشط فى تقوية الأسطول الاسلامى وتضخيمه حتى بلغ فى عهده ألفاً وسبعمائة قطعة قذف بها فى وجه الثغور والجزر الرومية فاحتل كثيراً منها .

* * * *

يتمثل الطموح والدهاء الحجازيان فى شخص معاوية فقد بلغ به الطموح ألا يقتصر هذا الأمر عليه ، وألا يفلت هذا الملك العريض من أيدى أسرته إذا هو مات ، فأقدم على أخذ البيعة لابنه يزيد بالملك من بعده . وهو عالم أنه سيلعب بالنار لخطورة هذا المطلب ولصعوبة تحقيق هذه الأمنية فى ذلك الوقت فعقلية ذلك الجيل وحريتهم تنكران ذلك ولا تقره وتقاومه أشد مقاومة لمخالفته ما تواطأ عليه الناس مما ألفوه من خلفائهم الراشدين . فإنهم لم يروا أحداً منهم عهد بالأمر إلى ابنه أو إلى أحد أقاربه بل وجدوهم يتحرجون أن يعينوا واحداً بعينه للخلافة — كما فعل عمر — ويتركون أمر الناس

شورى بينهم يولون عليهم من يرتضونه منهم ولكن قوة إرادة معاوية وطموحه الذى لا يقف عند حد ، ودهاءه الذى لا يجارى ، تغلبت كل هذه الصفات التى يمتاز بها معاوية على كل اعتبار . فظهر معاوية الداهية العتيد فى مظهره الرائع بأساليبه التى ابتكرها لتحبيذ ما تدعوه إليه نفسه بين الناس ، وحمل الجماهير على اتباعه فيما يريد وإبراز فكرته وتحقيقها كما يشاء : فجرد السيف حيث لا ينفع إلا السيف ، وبذل الأموال حيث لا يصلح إلا المال ، واستعمل جنود العسل التى كان يقول عنها — إن لله جنوداً من عسل — فأدت إليه خدمات جديرة بتقديره . وسخَّر ألسنة الفصحاء لغايته ، وسحر الأسماع ببيانه ، ووسع الموالين له بحلمه ، وأرهب المعارضين ببطشه ، فإذا الناس بجانبه والزعماء من خلفه والجماهير ببابه تهتف بحياة ولى العهد يزيد بن معاوية ، وتنادى بتأييده ، ويتغنى الشعراء فى مدحه وقرت بذلك عينه وأثلج فؤاده ، بيد أن أربعة زعماء أعياه أمرهم ولم تطلهم سهامه فأقض ذلك بعض الشيء مضجعه حتى إذا حانت وفاته ، أوصى ابنه بهذه الوصية السياسية العجيبة « إنى مهدت لك الأمور ، فأكرم أهل الحجاز وإن سألك أهل العراق عزل عامل كل يوم فافعل ، واجعل أهل الشام بطانتك ولا أخاف عليك إلا أربعة : فأما ابن أبى بكر فرجل كبير تهابه العرب اليوم أو غدا ، وأما ابن عمر فقد غلب عليه الورع ، وأما الحسين فله قرابة فإن ظفرت به فاصفح عنه ، وأما ابن الزبير فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً » وبذلك كان معاوية أول من استن توريث الملك للابناء فى الاسلام .

بفضل هذا الخليفة الحجازى — أو إن شئت فسمه الملك الحجازى — تأسست دولة الأمويين ونالت الشام بفضل خلفائهم من الفخر والسؤود ما هو مقروء ومسطور فى صحف التاريخ : مات معاوية سنة ٦٠ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة ملكه زهاء عشرين سنة رحمه الله ورضى عنه .



زعماء الحرية

الحسين بن علي – عبد الله بن الزبير – عبد الرحمن بن أبى بكر – عبد الله بن عمر

وهذا أحد الميادين التى خرج منها الحجاز مرفوع الرأس موفور الكرامة .. لما مات معاوية ، وتولى الأمر بعده ابنه يزيد : امتنع هؤلاء الأربعة الذين ذكرهم معاوية فى وصيته ، من الدخول فيما دخل فيه أهل الشام . وأبوا الاذعان ليزيد ونقموا عليه تهتكه وفجوره : دون أن يخشوا من سيف يزيد الذى أطاح الأعناق وكبت الضمائر ، وكم الأفواه ، وكان الحسين أعظم الزعماء خطراً وأحبهم إلى قلوب الناس من زملائه لأنه من بيت النبوة . فبعث إليه العراقيون يشكون من عتو يزيد وظلم عماله ويدعونه لانقاذهم منه : فأرسل إليهم مسلم بن عقيل ليستوثق له منهم إذا هو قام لنصرتهم فعاهده ثلاثون ألفاً على القيام معه حتى الموت فى سبيل التخلص من الحكم اليزيدى . فلما وافاه خبر ما تم على يد عقيل وجاءته كتب عظماء العراق ووجهائه يطلبونه أن يسرع بالسفر إليهم : ركب من مكة قاصداً العراق ، فأحدث ركوبه قلقاً شديداً عند يزيد وخشى من انهيار عرشه على يدى هذا الزعيم الذى يعرف أن رعيته تحبه وترى حبه جزءا من دينها فعمد إلى القوة فى إخماد هذه الحركة قبل أن يستفحل أمرها ــ وهذا ــ ما يعمد إليه ذوو السلطة فى كل زمان ــ وبعث قوة كبيرة إلى العراق على رأس عبد الله بن زياد . فحالت بين الحسين وبين أهل العراق . وقبض ابن زياد على بضعة نفر من أحرار العراقيين وصلبهم ، وفتك بابن عقيل وبعث جيشاً لمحاصرة الحسين والتشديد عليه . والحيلولة بينه وبين العراقيين . فلم يمكنوهم من الخروج إليه ولم يمكنوا الحسين من الوصول إليهم ، وكان أن حصر الحسين فى واد مقفر وليس معه إلا نساؤه وأبناؤه وأبناء أخيه ، وأبناء مسلم بن عقيل الذى فتك به ابن زياد ، وقد امتنعوا عن الرجوع حتى يأخذوا بثأر أبيهم أو يموتوا .

فلما أحس الحسين بالخطر الذى يكتنفه من جميع جهاته ، وليس لديه ما يدفعه به طلب من رئيس القوة المحاصرة أن يختار إحدى ثلاث (إما أن يسمح له بالعودة إلى الحجاز ، أو يتركه يذهب إلى الثغور ، فيصد عنها غارات الأتراك ، أو يدعه يقابل يزيد) فلم يمكنه رئيس القوة إلى شىء من ذلك وقال له : « إننا نريد محاربتك » .

ليس للحسين وهو بين نسائه وأبنائه ــ وقد حيل بينه وبين أنصاره وشيعته ــ جند يعتمد عليه فى صد هذه القوة المحاصرة ، وقوة العدو المتعسف المتجبر ، المتعطش لسفك دمه ودم من معه ، وهو إذ يفقد المعين والنصير لا نراه يجبن أو يخور أو يتزلف إلى قائد جيش يزيد أو يعطيه الدَّنية من نفسه ، ولكنه يرينا من نفسه قوة تخشع لها القلوب التى فى الصدور ، تلك هى قوة إيمانه بالله ومبلغ ثقته بنفسه وبأهل بيته ، فيعبىء من معه ــ وفيهم من لم يبلغ الحلم ولم يتجاوزوا السبعين ، يعبىء هذا النفر القليل لملاقاة ذلك الجيش العرمرم . وهو لا يبالى ماذا سيلقى ، ولكنه آمن بشىء واحد هو الثبات على المبدأ والقتال دون العقيدة والدفاع عن الكرامة والذب عن الحوزة ، ولو تألب عليه أهل الأرض ، وقاتلهم قتال من لا ملجأ له بعد الله إلا حد سيفه ، وقد أبدى هو وأهل بيته من البسالة ما جعل الروع والفزع يدبان إلى قائد جيش يزيد ، لأنه رأى الحسين وأهل بيته يحملون على جيشه ، فإذا هم كالشعلة التى لا تأتى على شىء إلا أكلته ، راعه ما رأى وخشى أن تدور الدائرة عليه وعلى رجاله ، فصاح بجيشه أن استعينوا على قتال هؤلاء بالعطش وحولوا بينهم وبين الماء ، فحالوا . . وقاتلهم الحسين حتى بلغه ولكن بعد أن تساقط فتيانه قتلى الواحد تلو الآخر وما ان بلغ الماء بمفرده حتى اغترف منه بدرقته وأسرع إلى خيمة الحريم ليطفىء ظمأ الأطفال الذين أزعجوه بشهيقهم من شدة العطش ، فعاجله أحدهم قبل أن يصل إلى الخيمة بسهم فرمى به صفحة خده وأثبته فى لسانه فنزف الدم بشدة حتى اختلط بالماء الذى يحمله ، ولم يفت كل ذلك فى عضده ، بل رفع يده لينتزع السهم من فيه وما ان همَّ بذلك حتى تكاثر عليه الأعداء واغتنموا فرصة انشغاله بانتزاع السهم وتناوشوه بسيوفهم ورماحهم ، فأسرع إلى سيفه وجالدهم به ، ولكنهم قد أثختوه جراحاً فارتمى على الأرض مغمياً عليه من كثرة النزيف ، فأجهزوا عليه واجتزوا رأسه وذهبوا به وبالنسوة والأطفال إلى طاغيتهم يزيد يحفهم عار الدهر وتشيعهم مسبة الأبد .

* * * *

ثار أهل الحجاز لمقتل الحسين ، فبعث يزيد إليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة وقد دخل المدينة ونكل بأهلها ، واستباح حرمتها ، وبالغ فى الانتقام منهم .

واعتصم ابن الزبير بمكة ، ونقم العالم الاسلامى كله على يزيد لما للشهيد من منزلة سامية فى القلوب ، ولما للمدينة من قدسية فى النفوس .

ونادى أهل مكة بسقوط يزيد وخلعوه ، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير وانضمت إليه نجد واليمن ، فأمر يزيد قائده بالمدينة أن يذهب بجنوده إلى مكة ويرمى الكعبة بالمنجنيق إذا اعتصم بها ابن الزبير فرميت فعلا ، ولكن الوفاة عاجلت يزيد فعاد جيشه إلى الشام ؛ وامتد نفوذ ابن الزبير إلى مصر والعراق وفارس وإيران ، وانشقت الشام على بنى أمية وانضم حزب منهم إلى تأييد ابن الزبير ، وكاد عبد الله يقضى على دولة الأمويين لولا أنه لم يتدبر الأمر .

أما عبد الرحمن بن أبى بكر فقد وافته المنية فى زمن يزيد دون أن يخضع لحكمه .

وانصرف عبد الله بن عمر للعبادة ، واعتزل الخوض فى الأمور السياسية مصراً على عدم الخوض فيها فراراً بنفسه إلى الله وعاش حتى احتال الحجاج الثقفى على قتله بالسم كما يقال .



عمرو بن العاص رضي الله عنه

صحابى كبير ، وقائد من أفذاذ القواد الحجازيين ، قاد الجيوش للغزو والفتح فى عهد النبى ﷺ ، ومن فتوحاته الخالدة فتح مصر العظيمة فى عهد عمر بن الخطاب ، وكان إلى كل ذلك من ذوى الدهاء المفرط ، وقطباً من أقطاب الحنكة السياسية الذين يستطيعون تكييف مجرى التاريخ طبق رغباتهم ويتصرفون فى مصائر الأمم والشعوب فلا تصدر الأمور إلا على وفق مشيئتهم ، وما تمليه لهم أهواؤهم ، ولا أدل على ذلك من الدور الخطير الذى لعبه على مسرح السياسة فى ذلك الوقت أثناء وقوع الخلاف بين علىّ ومعاوية فلقد كان عمرو الساعد الأيمن لمعاوية والعضو العامل فى حزبه إذ لولاه لما استطاع ابن هند أن ينفذ مشروعه الخطير الذى قام لتحقيقه فى قلب نظام الخلافة الاسلامية ، وجرها إليه وجعلها ملكاً عضوضاً له يتوارثها أبناؤه من بعده .

فقد أوشكت وقعة صفين الشهيرة أن تقضى على حركة معاوية وهى فى مهدها لولا أن تداركها عمرو بن العاص .

* * * *

يمتاز عمرو على معاوية فى الدهاء بسرعة تفكيره وحضور بديهته عند حلول الأزمات العصيبة وفى المواقف الحرجة . أما معاوية فإنه كان لا يحكم الرأى فى مسألة إلا إذا تروّى فيها وأمعن فى درسها ، لذلك نراه ارتبك لما أحس بدنو السيوف منه حتى أوشكت أن تنوشه وهو فى وسط سرادقه لانهزام جيشه أمام جنود عليّ فى صفين وفى نفس هذا الموقف نرى عمراً لم يرتبك ولم تأخذه الدهشة ، ولم تذهب بحلمه نذر الفناء بل نراه يدبر أمراً لم يكن ليتسنى لغيره فى ذلك الظرف الحرج ، فضمن به جلاء الغمة وفوز معاوية وتفريق وحدة خصومهم وتقسيمهم إلى أحزاب متباغضة يضرب بعضهم بعضاً ، فأشار برفع المصاحف على رؤوس الرماح والدعوة إلى الاحتكام لما جاء فى كتاب الله ، فكانت تلك الفكرة كقذيفة جهنمية أحكم تصويبها حتى لم تدع أحداً من

جند عليّ إلا أصابته بشظية من شظاياها ،فذهبوا لا يلوون على شيء ونكصوا على الأعقاب بعد أن رأوا النصر عياناً ، وصموا آذانهم ولم يصغوا لعليّ وهو يحذرهم من أن تغرهم هذه الخديعة .

* * * *

بهذه الحيلة ، وبما أبداه عمرو من المهارة فى تغرير أبى موسى الأشعرى وخديعته له فى مؤتمر التحكيم المعقود بدومة الجندل أنقذ معاوية من الموت المحقق فى الأولى ومهد له طريق العرش فى الثانية .

أضف إلى ذلك فى سجل أعمال عمرو بن العاص تصميمه على فتح مصر رغم تخوف الخليفة عمر بن الخطاب من التغرير برجال المسلمين فى إرسالهم مع ابن العاص لفتحها فلقد بلغ الحذر بعمر بن الخطاب أن بعث كتاباً لعمرو يأمره فيه إذا وصله كتابه قبل أن يصل إلى مصر أن يقفل راجعاً ، وإن وصلها فليمض فى سبيله فبلغه كتاب الخليفة قبل وصوله الأراضى المصرية ، وكأنه علم بما يحتويه الكتاب فأجّل افتضاضه حتى وطئت خيله تربة مصر ثم فتحه ، وأعاد الرسول إلى عمر يخبره أنه لم يقرأ كتابه إلا بعد وصوله مصر .

من هذا وذلك يتضح كيف استطاع عمرو أن يغيّر التاريخ الاسلامى ويكيّفه لنا فى وضعيّته الحاضرة ، ولولا هذه الصور والأساليب التى انطوت عليها تلافيف ذلك المخ الجبار فى رأس عمرو ، لكان للتاريخ الاسلامى شأن غير هذا . ولكن الله أراد ذلك فوجَّه عمرو بن العاص هذه الوجهة .

* * * *

ولو أردنا أن نسترسل فى التحدث عن عمرو بن العاص و « وحائده » فى الدهاء لما وسعنا المقام ، فعسى أن أوفق فأفرد لهذه الشخصية الحجازية الممتازة فى عالم الدهاء بحثاً خاصاً بها ، فإن عمراً جدير بأن تخلد ذكراه احياء لبعض النواحى المطمورة فى تاريخ المجد الحجازى .



خالد بن الوليد رضي الله عنه

قائد حربى عظيم فتوحاته بالشام ، ووقائعه بالعراق ، وانتصاراته على أهل الردة أكبر من أن تقدر ، وأشهر من أن تذكر ، فإذا افتخر تاريخ انكلترا بنلسون وتاريخ امريكا بواشنطون ، وتاريخ فرنسا بجان دارك وتاريخ إيطاليا بغاريبالدى ، فإن تاريخ العرب ليفتخر أشد الفخر بخالد بن الوليد فاتح العراق وسوريا وايران ، وقائد أحسن قوة منظمة فى الجيش الاسلامى العظيم ، وألمع جوهرة فى تاج قواد العرب ، ويتمتع خالد بشهرة واسعة فى جميع الآفاق ، فقد تركت جلائل أعماله دوياً هائلا يتردد صداه على تعاقب الأجيال ، إذاً فهو غنى ببعد صيته عن أن يتحدث عنه ، فقلما تجد شخصاً فى مختلف الأوساط لم تتسرب إليه سمعة خالد ، وبطولة خالد .

بيد أن هناك ناحيتين من النواحى المتعددة التى تمتاز بها شخصية هذا البطل العظيم ، قد تكونان خفيتين بعض الشيء عند قليل من الناس فهما حريتان بأن يشار إليهما لتلتفت نحوهما الأنظار فتستنير بهما ذكرى عظمة خالد الخالدة .

أولا ــ شغف خالد بالمخاطرة حتى انه لو وجد فى عصرنا هذا لعد من أعظم المجازفين فى العالم .

ثانياً ــ تفننات خالد العجيبة واختراعاته المدهشة فى تعبئة الجيوش تعبئة لم يسبقه أحد من العرب إليها ، فمن مخاطراته المدهشة تلك المجازفة التى مكنته من فتح دمشق بعد أن طال أمد حصارها على المسلمين لمناعة حصونها ، فقد سوَّل حب المخاطرة لخالد أن يتحدى جموع الروم وهم فى قلب حصونهم ، فأتى بالحبال وجعلها كهيئة السلالم وتسلق بها الحصون فى بضعة رجال من أصحابه الأشداء ، ودهم المدينة ، ووضع السيف فى حاميتها حتى أرغم سكانها على تسليم البلدة لأبى عبيدة القائد العام لجيوش المسلمين إذ ذاك [1] .

وأروع من هذا تلك المخاطرة التى يبهت لها كل من سمع بها ، لما خرج عمرو بن عبد المسيح

---

(١) عن تاريخ الخميس ص ٢٤٦ بتصرف .

الملقب ببقيلة لعقد الصلح مع خالد فى فتح الحيرة ، رأى خالد كيساً معلقاً فى حقو بقيلة فنثره فوجد فيه مسحوقاً فقال : ما هذا : فقال هذا وأمانة الله سم ساعة ، قال خالد : ولم تحتقبه ؟ ، فقال خشيت أن تكونوا على غير ما أرى وقد أتيت على أجلى والموت أحب إلىّ من مكروه أدخله على قومى ، فقال خالد « لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها » وابتلع السم بعد أن أهوى الحاضرون يمنعوه من بلعه فلم يفلحوا فلما رأى عمرو فعل خالد قال : يامعشر العرب تملكن ما أردتم ثم أقبل على قومه وقال لم أر كاليوم أوضح اقبالا (١) .

وانسل خالد مرة عند منصرفه من أحد الميادين العراقية وجاء إلى مكة وحج دون أن يبالى بأغوال الصحراء ووعورة الطريق الذى سلكه وعاد الى جيشه ولم يشعر أحد منهم بسفره وعودته لقصر المدة التى استغرقت ذهابه وإيابه ، وكان يجازف بالجريدة من الخيل لا يتجاوز عددها المائتين ، فيحمل بها على الألوف المؤلفة من الجنود كاملي العدة والسلاح فيظفر بهم . واستمع لما يقوله رجال خالد فى خالد « كنا نظن أن الكثيرين من الأفرنج والقليل عند خالد سواء لأنه كان لا يملأ صدره منهم شىء ولا يبالى بمن لقي منهم لفرط جرأته عليهم ، حمل ذات مرة بمائتى فارس على ألفين كانوا مدداً لعدوه فما وقفوا حتى انهزموا وانصرف خالد يوجف بأصحابه وجيفاً وحمل على أمداد أخرى كانت أكثر من ألفين فما أثبتوا له فواقاً حتى هزمهم (٢) .

واخترق خالد بجيشه طريقاً لم يكن مطروقاً من قبل حينما دعى من العراق لامداد أهل الشام ، وكادت هذه المخاطرة تودى به وبجيشه لقلة الماء فى تلك المفاوز التى اخترقها لولا دليله رافع بن عميرة الطائى فقد دلهم على عين ماء فى أصل شجرة كانت هناك فاحتفرها خالد وسقى منها الجيش وتزود بمـــائهـــا .

وهذا يرينا مبلغ جرأة خالد وشغفه بالمخاطرة فإنه رغم تحذير المحذرين له من التغرير بالجيش إذا هو سار به من هذه الطريق صمم على سلوكها وسلكها وتغلب على الصعاب فيها وانتسفت إرادته كل ما يحول بينه وبين وصوله إلى جيش الشام بالسرعة التى يريدها . وبعد أن تم له اختراقها لم يرتح ويرح من معه بضعة أيام كى يستجمعوا فيها نشاطهم من الجهد الذى أصابهم ، وما عانوه فى قطع تلك المفاوز

---

(١) عن تاريخ الخميس ص ٢٤٦ بتصرف .
(٢) عن تاريخ الخميس بتصرف ص ٩٥ .

المقفرة بل أمر جيشه بالتهيؤ للحرب ، وحمل على بعض بلاد كانت على طريقه فافتتحها وأغار على بعض القبائل فاكتسح بلادهم . وتعقبهم حتى استولى الرعب على سكان تلك النواحى مما يقذفهم به خالد من الموت المتواصل والفناء العاجل . ولنضرب لذلك مثلا بهذه الحكاية « جلس رجل يشرب من شراب له فى جفنة وجمع أسرته حوله ليشربوا معه فقالوا ومن يشرب فى هذه الساعة من أعجاز الليل فقال اشربوا شراب مودع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها ، هذا خالد بالعين ثم أنشد :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر وقبل انتقاض القوم بالعسكر الدثر
وقبل منايانا المصيبة بالقدر بحين لعمرى لايزيد ولا يجرى

وقال :

ألا عللا قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب وما ندرى

فما هو إلا أن فرغ من قوله حتى شد عليه رجل من جند خالد فضرب عنقه فإذا رأسه فى الجفنة (١) وتلخص لنا هذه الحكاية على فرض صحتها ما لخالد من أعصاب قوية لا تعرف من الكلال إلا اسمه فهو يواصل بحملاته المتكررة أطراف النهار باعجاز الليل لا تستقر له حركة ، ولا يهدأ لعدوه بال . وله بعد ذلك تفننات رائعة فى تعبئة الجيوش وتنظيمها فى الميادين .

فإنه بعد أن وصل إلى اليرموك بالسرعة التى أرادها رأى كثرة الروم ورأى المسلمين فرقا كل فرقة تحت إمرة قائدها ، فلم ترقه هذه الخطة ، واقترح على القواد توحيد القيادة . . ولئلا يظنوا أنه يريد استقلاله بالولاية عليهم ويسلب من أيديهم ما لهم من سلطة : قال لهم « إذا وحدنا القيادة يتأمر كل يوم منا واحد حتى نتأمر كلنا واجعلوا لى الامرة اليوم » فأجابوه إلى ما طلب . فنظم الجيش وعبأه فى شكل لم يعرفه العرب من قبل فقسمه إلى جناحين وقلب ــ وما زالت هذه الخطة التى اخترعها خالد معمولا بها فى خطوط القتال إلى اليوم ، وتعرف بالتعبئة الخالدية نسبة إلى مبتكرها خالد بن الوليد القائد العظيم ، وكان أن فاز المسلمون على الأفرنج ودحروهم وأوقعوا بجموعهم .

(١) تاريخ الخميس .

وهنا يرينا خالد كيف يسمو بنفسه صعداً ، فقد فوجىء مفاجأة خطيرة إبان تعبئة الجنود فى ذلك الميدان الذى يتوقف نجاحه على دربة خالد الحربية ، لو فوجىء بها غير خالد لانقلب الموقف رأساً على عقب ولفقد جيش المسلمين فى تلك الجبهة اتزانه فقد أتاه فى تلك اللحظة أمر عمر باعتزاله القيادة العامة وتولية أبى عبيدة وخبر وفاة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فلم يكن من خالد إلا إرسال كلمته الخالدة : « أنا لا أحارب من أجل عمر » وكتم الأمر حتى تم له الفوز ثم سلم الكتاب لأبى عبيدة وهنأه بمنصبه الجديد .

أية همة عالية تنطوى عليها أضالع هذا البطل ، وأية نفس تتغلغل فى صميمه لقد ضرب خالد بعمله هذا أعلى المثل فى الترفع عن الاعتبارات الشكلية التى لا تستطيع أن تغير شيئاً فى مجرى حياة العظماء الطبيعية ، فالألقاب والوظائف إن هى إلا صور وهمية لا تزيد فى عظمة العظيم شيئاً إذا هو أوتيها ، ولا تنقص من حدود عظمته شيئاً إذا هو سلبها ، ويكفى خالداً قول أبى بكر لما كثرت كتابات أمراء الأجناد من الشام إليه يخبرونه عن كثرة جموع الروم وهو يمدهم بالامداد تلو الامداد وهم لا يكفون عن المكاتبة ، قال أبو بكر : « لأخرجن من أعلاج الروم وساوس صدورهم ولأرمينهم بخالد » ونظرة واحدة تلقى على الكتاب [1] الذى بعثه أبو بكر لخالد وهو فى العراق كفيلة بأن تريك ما لخالد من مكانة عالية عند خليفة المسلمين .

والآن وقد بدأت مخيلتنا تلتقط صورة مصغرة للفورة الحيوية التى كانت تعتلج بين جنبى خالد ، فتدفعه إلى الاقدام والمخاطرة ، ورأينا نموذجاً بسيطا مما كانت تشتمل عليه نفسية خالد من همة عالية ، ونبل بالغ يرفعانه إلى المكانة السامية فى معارج الكمال الانسانى ، وأخذ شعورنا يحس بما كان لهذه الشخصية من التمرد فى بعض جوانبها ، فلقد طالما تعرضت للموت الأحمر فارتد عنها وفرضت إرادتها على الأمور فخضعت لها ، وتغلب على الصعاب فأذعنت لمشيئتها ، يدفعنا حب التطلع أن نتساءل كيف انتهت حياة هذا البطل المشبه بالسيف المسلول فى ذلك الوقت وفى أى المواقف همدت فورتها ، وأى الميادين أوقف هذه الحركة المستمرة ، وأية قوة أطفأت هذه الشعلة الملتهبة . أاستطاعت الحروب أن تمد

(١) يروى أنه مما جاء فى الكتاب الذى بعثه أبو بكر لخالد بن الوليد حين أمره بالتوجه إلى الشام وولاه القيادة العامة لجيوش المسلمين :
« أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله سبحانه أحد من الناس إشجاءك ولم ينزع الشجا أحد من الناس نزعك ، فلتهنأ أبا سليمان النعمة والحظوة ، فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتنحسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله تعالى له المن وهو ولى الجزاء » وقوله لم يشج الجموع أى يقهرهم ويغلبهم من أشجاه إذا غلبه (تاريخ الخميس ص ٢٥٥ ج ٢) ، والذى يعنيه أبو بكر من قوله إياك الخ يعاتب خالداً فى ذهابه إلى الحج بدون استئذان اهـ .

يدها إليه وتسطو على نفسه ؟ أم هل قويت تلك السيوف التى طالما لاعبها أن تذهب به إلى رمسه ؟ وكيف ومتى قضى نحبه ؟؟.

ما قتلته الحروب ، ولا طالته السيوف ، ولا نالته الأيدى ، ولكن يد الله الغالبة القاهرة هى التى تولت قبض روحه ، فكانت خاتمته على فراشه وبين جدران منزله فى حمص ، وكم حز الأسى والحسرة فى نفس خالد لهذه الموتة الهادئة ، واستمع كلمته الأخيرة تصور لك المرارة التى يحسها خالد فى أعماقه : « شهدت زهاء مائتى زحف حتى لم يبق فى جسمى موضع إبرة إلا وبها طعنة رمح أو ضربة سيف وأموت على فراشى هكذا كما يموت العنز ، فلا نامت أعين الجبناء . »



أبطال الجندية وشهداء الثبات

أبو دجانة ــ أبو محجن ــ البراء بن مالك ــ زيد بن الخطاب
سالم مولى حذيفة ــ ثابت بن قيس

يكاد يكون الجندى الحجازى فى عصره الذهبى من خير الجنود العالمية ، إقداماً وشجاعة ، وثباتاً ونبــلاً .

ويجدر بالأمة التى تتطلع إلى الحياة اليوم ، والتى ترغب أن يكون لها زند قوى يحفظ كيانها ويذب عن كرامتها ، ويدافع عن بيضتها ، ويكلل رأسها بأكاليل الغار ، أن تتخذ من الجند الحجازى القديم مثلا أعلى تحمل أبناءها على التخلق بأخلاقه والتطبع بطباعه .

وبذلك تستطيع الأمة التى يتلقن نشؤها تلك المبادىء العالية أن تكون لنفسها جنداً يستشعر بكرامتها فلا يغلب من ذلة . ولو حملته على محاربة الأبالسة لما فت ذلك فى عضده ، ولأجل أن تتضح لنا الميزة التى امتاز بها الجندى الحجازى القديم فى ساحات الشرف عند ملاقاة الأعداء نعرض صفحة من أعمال أولئك الجنود البواسل الذين انتشر الاسلام على كواهلهم . ولنتكلم على هؤلاء الستة المذكورة أسماؤهم آنفاً كنموذج لما كانت عليه نفسية الحجازيين فى ذلك الوقت وما تنطوى عليه أضالعهم من الاقدام والشمم ، وأى مبلغ بلغ بهم عرفانهم للواجب فضحوا بأرواحهم العزيزة ودمائهم الغالية فى سبيله .



أبو دجانة الأنصارى

صحابى جليل ، وجندى باسل من صف المشاة فى عهد الفتوحات الاسلامية ، وكانت تجمع شخصيه هذا الجندى بجانب بسالته الحربية شهامة الرجولة ولنعتمد فى إظهار هاتين الخلتين التى تحلى بها أبو دجانة على الحكاية التى ننقلها من مجلة الاسلام فى عددها ٤٥ (صحيفة ٤٥) بشىء طفيف من التصرف « جمع رسول الله ﷺ الأهبة وعقد الألوية ونظم الصفوف ليسير بها إلى غزوة أحد ، وجنود الله تحف بهم ملائكة الرحمن وتظلهم عظمة الاسلام ينتظرون أمر الرسول ويراقبون منه الاشارة بالمسيرة . فى هذا الوقت الرائع المهيب تناول ﷺ سيفاً من السيوف التى اغتنمها المسلمون فى غزوة بدر وقال لمن حوله من الجنود البواسل ، من يأخذ هذا السيف بحقه ، فتقدم سماك بن خرشنة الملقب بأبى دجانة فقال وما حقه يا رسول الله قال أن تضرب به فى الأعداء حتى ينحنى » فقال أنا آخذه بحقه فأعطاه إياه . قال الزبير والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة بالسيف فرأيته أخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار عندئذ وضع أبو دجانة عصابة الموت ثم خرج يقول منشداً :

أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أكون قط فى الكيّول [1] ... أفرى بسيف الله والرسول

فلما تلاقت الرجال ، ولمعت السيوف وحمى الوطيس ، رأيت أبا دجانة يقاتل بالسيف حتى أمعن فى الناس لا يلقى أحداً من الأعداء إلا قتله وكان من المشركين رجل شديد البأس لا يدع جريحاً إلا ذفف عليه فدعوت الله أن يجمع بينهما فجعل كل واحد يدنو من صاحبه حتى التقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة بسيفه فاتقاه بدرقته فغضت الدرقة بسيف المشرك وضربه أبو دجانة بسيفه ضربة واحدة كانت القاضية . ورأيت عند سفح الجبل نسوة للمشركين يضربن بالدفوف ومعهن هند بنت عتبة تنشد ويرددن معها .

(١) الكيول : مؤخرة الصفوف .

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشيِ القطا النقانق الدر فى المخانق
والمسك فى المفارق ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق

يغرن بذلك حماس رجالهن فلا يفترن عن القتال فحمل عليهن أبو دجانة بالسيف ونادت هند مستغيثة بالصخرات ، فلم يجبها أحد فكف أبو دجانة عنهن وانصرف إلى الرجال يقاتل حتى انقطع السيف فى يده .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أقبلت على أبى دجانة ، وقلت له كل ما فعلته بسيفك أعجبنى غير أنك لم تقتل المرأة فقال فإنها نادت تستنجد بالرجال فلم يجبها أحد فأكرمت سيف رسول الله ﷺ وكرهت أن أضرب به امرأة لا ناصر لها وهنا يضرب لنا أبو دجانة المثل الأعلى أيضا فى الشهامة العربية وفى احترام حرية المرأة وفى عدم العدوان على أعزل ، وهذه صفات تدعو إليها مدنية القرن العشرين اليوم وقد عرفها أبو دجانة ومعاصروه من بنى أمته العرب ومن مواطنيه الحجازيين فى القرن السادس لأنها صفات تدعو إليها الانسانية العامة قبل أن تدعو إليها مدنية القرن العشرين — فيا لله ما أكبر هذه النفوس ، وأعظم تلك الخلال ومن أحق من هؤلاء بالاقتداء ؟؟.



« أبو محجن الثقفي »

كان أبو محجن الثقفي من جند المسلمين فى حرب الفرس ولاتهامه بالسكر كبله بالحديد سعد بن أبى وقاص ـــ القائد العام للجنود الاسلامية فى تلك الميادين ـــ وسجنه ووافق يوم سجنه أن كانت وقعة القادسية الكبرى فرأى أبو محجن الثقفى الأبطال يتبارون فى ميدان الجهاد بشجاعتهم . فأخذته الحسرة على نفسه ـــ وان سجن مثل هذا الجندى الباسل فى مثل هذا الظرف ، لشديد ومؤلم ـــ ولولا ما جبل عليه من الطاعة لرؤسائه لحطم أغلاله بيده ولذهب إلى المكان الذى تنتعش له نفسه وجالد العداء بسيفه ولكنه ذهب يتلمس الخلاص مما هو فيه ، على يدى « سلمى » زوجة سعد لعلها ترق له وتخلصه من الأغلال التى يرسف فيها ، فقال لها هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذلك ؟ قال تخلى عنى وتعيريني « البلقاء فرس سعد » فوالله إن سلمنى الله أن أرجع فأضع رجلى فى القيد فلم تجبه سلمى إلى ذلك فشق عليه الأمر ، فلما جنه الليل رفع عقيرته وأنشد :

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا   وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت   مصارع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة   قد تركونى واحداً لا أخاليا

فسمعته سلمى فلما أصبحت أعطته البلقاء وأطلقته وخرج تعدو به البلقاء . فحمل على ميسرة الفرس فقتل رجالا وأنكس أبطالا ثم حمل على ميمنتهم وفتك بهم فتكاً ذريعا ، والمسلمون يرمقونه بأبصارهم مأخوذين بشجاعته يتساءلون من هذا الفارس وكان سعد يراه من شرفته فيقول والله لولا محبس أبى محجن لقلت هو هذا ، وهذه البلقاء . فلما انفض الموقف عاد أبو محجن إلى سجنه وأعاد قيوده إلى رجليه كما كانت وأنشد :

لقد علمت ثقيف غير فخر   بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعا سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى ... وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فسألته سلمى فى أى شىء حبسك سعد . فقال والله ما حبسنى سعد فى حرام أكلته أو شربته . وإنما كنت صاحب شراب فى الجاهلية وإنى امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فقلت :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى فى التراب عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى ... إذا مت أخشى أننى لا أذوقها

ولذلك حبسنى فأخبرت سلمى زوجها بخبره فدعاه إليه وأطلقه وقال له اذهب فما أنا مؤاخذك على شىء تقوله حتى تفعله ، فقال أبو محجن : إذاً والله لا أجيب لسانى إلى قبيح أبداً .

هذا نموذج لما كانت عليه النفوس فى ذلك الوقت وإن قوماً لآبائهم مثل هذه النفوس العالية جديرون باتباعهم وليس من الصعب ولا من المستحيل أن يصل أبناء هؤلاء الأمجاد إلى ما كان عليه آباؤهم ، وان الطريق التى سلكها الأسلاف الكرام عليهم الرحمة واضحة المعالم فسيحة الأرجاء ضمينة لكل من سلكها أن تصل به إلى ما تصبو إليه نفسه من عز ومنعة حتى تضع يده على الهدف الأعلى الذى له يجاهد ، ومن أجله يحيا ومن يسلك طريقاً غيرها فقد باء بخسران مبين وكان فى هذه الحياة من الأذلين .



« البراء بن مالك رضى الله عنه »

وهذا مثل آخر ترى به البسالة فى أروع معانيها تتجلى فى خطوط القتال ، فلقد كان البراء فى صف الخيالة فى المدرسة الحربية الحجازية [1] إبان ازدهارها . فكان إذا رأى الحرب ينتفض انتفاضة لا يفيق منها حتى يمسكه الرجال فإذا ما أفاق بال بما يشبه الدم ، ثم يركب فرسه والخيل من ورائه ويحمل على العدو فلا يعود من وجهته حتى يدع الميدان قاعاً صفصفاً من أعدائه أو يقتل . وله من الواقع الحربية ما لايتسع المقام لسرده وكان كثيراً ما يعتمد عليه خالد بن الوليد فيجعله على أعنة الخيل فى أهم الميادين الحربية وقد شهد له خالد بالشجاعة وحسن البلاء فى الحروب فقال حينما سئل عنه « كان البلاء للبراء ضحية حملاته الجبارة ، فقد استشهد فى وقعة اليمامة لما حمل على بنى حنيفة تلك الحملة المنكرة حتى أقحمهم الحديقة واقتحمها وراءهم وقاتلهم على بابها حتى فتحه للمسلمين ، فلما دخلوها وجدوه قتيلا عليه ووجهه ما كاد يبين لكثرة الجراحات فيه . رحمه الله ورضى عنه .



(١) لم نعن بالمدرسة تلك البناية التى تضم بين حوائطها التلامذة ولكن نعنى بها المدرسة بمعناها الواسع .

« زيد بن الخطاب رضى الله عنه »

حمل لواء المسلمين فى وقعة اليمامة وتقدم به الصفوف ووقف فى نحر العدو حتى إذا حمى الوطيس وتكاثر المشركون على الصحابة ووقعت الهزيمة فى المسلمين لم يبرح زيد مكانه ولا التفت إلى من وراءه بل اخترط سيفه وقاتل به مستميتاً وأحاط به المشركون إحاطة السوار بالمعصم ليسقطوا الراية من يده وهو ينحر بها فى صفوفهم باذلْا جهده فى ألّا تقع الراية من يده ولا تتأخر من المكان الذى أقيمت فيه أو يموت فكافحهم مكافحة الأبطال وجالدهم بسيفه جلاداً قاسياً حتى أعياهم ولم يجدوا إليه ولا إلى الراية سبيلا ثم تعاونوا عليه وضربوه بسيوفهم إلى أن خر صريعاً فى ساحة الشرف فكان مثال التضحية الشريفة فى سبيل المبدأ الشريف — وهكذا فليكن الثبات والحرص على الراية التى هى رمز العزة وشعار الأمة ، ولقد عرف زيد واجبه نحوها فضرب أروع الأمثال فى الثبات بها والدفاع عنها ، فلم يزحزحها عن مكانها حتى مات دونها ونفى عن نفسه معرة الانهزام بها وكأنه يقول لمن يخلفه ممن يحملون الأعلام ويرفعون الرايات فى ساحات القتال ، لا يخلق بمن يحمل الراية أن ينهزم ولو لم يبق فى الميدان سواه .



« سالم مولى حذيفة »

وهذا سالم يرينا كيف يجب أن تكون الجنود فى ساحات القتال ويلقى علينا بجرأته الخالدة درساً بليغاً تفور له الدماء فى العروق وتهفو إليه الأرواح وتود لو أنها تخلص إلى عليين وروح سالم فتحييه وجهاً لوجه دون أن يكون بينها وبينه حجاب .

لما رأى سالم مصرع زيد بن الخطاب وسقوط راية المهاجرين من يده أسرع إلى الراية ورفعها وحفر الأرض حتى بلغت أنصاف ساقيه وهال عليها الرمال لئلا يتحرك من مكانه . واشتد القتال بين الفريقين وسالم ثابت فى مكانه يقصم بسيفه كل من دنا منه إلى نصفين فلما رأى المشركون شدته عليهم وثباته دونهم شدوا عليه بسيوفهم فقطع ذراعه الايمن فتناول الراية بيده اليسرى فقطعت أيضاً فأطبق عليها بعنقه حتى انفصل رأسه من جسده رحمه الله .



« ثـابت بن قيـس »

وفى هذه الموقعة نفسها اقتدى ثابت بن قيس الأنصارى بسالم ووضع قدميه فى حفرة إلى أنصاف ساقيه وثبت فيها ثبوت الرواسى الراسخات وبيده راية الأنصار ولقد كان الناس يتفرقون،وإن سالما وثابتا لقائمان ثابتان برايتهما وكلما رأى الأنصار رايتهم مرفوعة ترفرف على رأس ثابت ، وثابت لم يتحرك بها عن مكانه يثوبون إليه كما يثوبون إلى الحصن المنيع حتى تناوشته السيوف من كل مكان وذهب شهيد ثباته . وكانت العاقبة أن دحر المسلمون أعداءهم وانتصروا عليهم . وهنا يقف الفكر برهة مأخوذاً بروعة هذه البطولة التى تتجلى فى أشخاص هؤلاء العظماء ، ثم يسبح فى عالم الخيال آخذاً بيد الروح حتى يشرف بها على مصارع هؤلاء الشهداء فتنظر إلى قبورهم معجبة ببسالتهم فلا تملك بعدها إلّا أن تحييهم من الأعماق .

السلام عليكم أيها الشهداء الأبرار .

« « يا حماة الدين وأنصار الحق .

« « يا دعاة الفضيلة ويا أهل الشمم .

« « يا حزب الالٰه وجند الاسلام .

« « يا أبطال الوغى ويا آساد الشرى ويا أهل الصبر والصدق والوفاء .

« « يا من رفعتم رؤوسنا عالية وتركتم لنا مجداً مخلداً صرنا نفاخر به الأمم ونباهى به الشعوب.

فليهنكم أيها الأمجاد ما آتاكم الله من مجد الحياة ونعيم الآخرة .

ثقوا أيها الصناديد أن الاسلام الذى جاهدتم من أجله ومتم فى سبيله قد عم وانتشر ، وقد انطوى تحت الراية التى قمتم ذبا عنها ملايين من البشر ، وأن تلك الراية ما زالت خفاقة ترفرف على كثير من أقطار المعمورة ، وما ذهب جهادكم عبثاً ولا ضاعت جهودكم سدى .

عبد الله بن العباس رضي الله عنه

كان عبد الله بن العباس من الأفذاذ القليلين الذين منحوا جودة الفهم وحدة الذكاء ، وكانت نفسه العالية تدفعه إلى طلب العلم ، وكأن حافزاً وجدانياً يحثه على أن يكون من المتضلعين فيه ، فكان يذهب إلى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ يحسب عنده شيئاً من الحديث فيلقاه نائماً فيقف على بابه تسفى عليه الأرياح من تراب الأرض دون أن يتذمر حتى يستيقظ فيأخذ عنه ما عنده وينصرف .

وكان وجوده فى زمن تطور عقلى هائل وحركة علمية شديدة وحياة فنية متطلعة إلى السمو والكمال ، وروح دينية رائعة تسود ذلك التطور وتلك الحركة والحياة من تأثير ما أحدثته تلك المدرسة الحديثة التى أسسها صاحب الرسالة الاسلامية محمد بن عبد الله ﷺ من نهضة قوية شملت جميع المنا حى فى النفس الانسانية لتصعد بها من حضيض الجهل والأمية إلى مدارج الرقى والفلاح ، فما هو إلا أن ترعرع ابن عباس رضى الله عنه وعرف نفسه فوجدها بين أحضان بيئة عالية تكتنفها من جميع الجهات . تلك هى البيئة المحمدية التى لم يحدثنا التاريخ عن أمة من الأمم أنها وصلت فى عصر من عصور حياتها ببيئتها العامة من التهذيب مثل ما وصلت إليه هذه البيئة التى أوجدها نبى الاسلام فى بلاد العرب وعلى الأخص فى البلاد الحجازية التى كانت مهد تلك الدعوة السياسية والصيحة المدوية التى تجاوبت أطراف المعمورة بأصدائها ، فوحدت ميول الناس وجعلتهم فى مستوى واحد من الأخلاق والصفات . وإنها لبيئة تاريخية جليلة فاز بها المجتمع الحجازى فى دور من أدوار حياته — هذه البيئة هى التى وجد ابن عباس بين أحضانها فتعشَّقها وغمس بنفسه فى قرارتها وعب من علومها ومعارفها كما يعب الظمآن من ماء عذب بارد وتنقَّل بين مواردها ينتقل من مناهلها العذبة برغبة ملحة ولهفة شديدةحتى شفى غليله وروى ظمأه ، وتضلع بالكليات والجزئيات منها فلم تفته صادرة ولا واردة مما كان يعنى به القوم إذ ذاك ، فكان المبرز على علماء زمانه .

* * * *

وأظهر ابن عباس من الاستعداد والمقدرة الممتازة فى حل المسائل العويصة ، وتوضيح المعميات ما دفع بتلك المدرسة التى تخرج فيها والتى لا تذهب لديها الكفايات هملا ، بأن تمنحه لقباً علمياً لم يفز به سواه إلا ثلاثة من زملائه على كثرة من ضمت تلك الجامعة الفسيحة الأرجاء الواسعة الجوانب من التلامذة النجباء ، فلقبته « حبر الأمة » تقديراً لنبوغه وعبقريته الفائقين ، ونال من المنزلة والاحترام عند الخلفاء الراشدين ما لم ينله غيره ، فكثيراً ما كانوا يستشيرونه فى مهمات المسائل ومهمات الامور ولم تمنعهم حداثة سنه أن يقدموه على أكابر الصحابة .

وكان عبد الله بن العباس يتمتع طوال حياته بجوهرة مخية ــ إن صح هذا التعبير ــ شديدة الصفاء ، سريعة الالتقاط لكل ما تراه وتسمعه ، ولقد أعجز إذا حاولت تشبيهها بشىء يقربها إلى الأفهام ولكن عجزى لا يمنعنى من أن أقول : إن جوهرة مخ ابن عباس كانت أشبه شىء بعدسة « الفوتوغرافية » التى لا تمر على شىء إلا أسرعت إلى التقاطه وإثباته بسرعة متناهية ، فكذلك كان ابن عباس فى ذهنيته النيرة ، لا ترى عيناه شيئاً ولا يمر بسمعه شىء إلا أسرعت إلى التقاطه وإثباته فى تلافيفها (صورة طبق الاصل) لا تضاهيها فيه عدسة المصور الباهر مهما بالغ فى انتقاء بلونها ، ولا أدل على ذلك من الحكاية التى يرويها لنا صاحب الأغانى فى صحيفة ٧٢ من الجزء الأول قال: « بينا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال انشدنا فأنشدنا :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر [1]

---

(١) ومما فى القصيدة هذه الأبيات :

لحاجة نفس لم تقل فى جوابها ... فتبلغ عذراً والمقالة تعذر
أشارت بمدراها وقالت لأختها ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر
فقالت نعم لا شك غير لونه ... سرى الليل يطوى نصه والنهجر =
= رأت رجالا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقادفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر
قليلا على ضهر المطية ظله ... سوى مانفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليس لشىءآخر الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمتنى السرى ... وقد يجشم الهول المحب المغرر

حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : الله يا ابن عباس إنا نضرب إليك آباط الابل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخسر

فقال ليس هكذا قال ، قال فكيف قال ؟ فقال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضخى وأما بالعشى فيخصر

فقال :ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ، ثم أنشدها مقلوبة من آخرها إلى أولها وما سمعها إلا تلك المرة صفحاً ، قال وهذا غاية الذكاء ، فقال بعضهم ما رأيت أذكى منك قط ، فقال لكننى ما رأيت قط أذكى من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ابن عباس يقول ما سمعت شيئاً إلا رويته وإنى لأسمع صوت النائحة فأسد أذنى كراهة أن أحفظ ما تقول .

وهذه الحكاية صحت أو لم تصح فإنها دليل على أن ابن عباس بهت الناس بحدة ذِكائه وكذلك ترينا أيضاً مكانة ابن عباس فى الدين فلقد كان الناس يضربون له آباط الابل من أقصى البلاد يسألونه عن الحلال والحرام ، ولماذا تذهب لذلك ، فهذه فتاوى ابن عباس وأقواله لم تزل إلى يومنا من أقوى المصادر الفقهية ، ومع كل فلم يكن ابن عباس متزمتاً فى نفسه .

فها هو لم يتحرج من مجالسة ابن أبى ربيعة ذلك الشاعر الغزل ، وها هو يصغى إليه فى المسجد الحرام ، ويستمع غزلياته ويحفظها ، بل كان يتفقده إذا طالت عليه غيبته فيقول : « ماذا أحدث هذا المغيرى بعدنا » .

وهنا يتصور الانسان كيف كان مجلس ابن عباس طريفاً تنشرح له الصدور وتلتذ الأنفس من درسه لا سأم ولا ضجر يستوليان على من حوله لما يتخلل مجلسه وحديثه من شتى الأبحاث ومختلف العلوم ، ولا أحسب إلا أن المسجد الحرام كان يغص بالناس من كل فج فيجدون عند ابن عباس

بغيتهم على اختلاف مشاربهم ، وقد وسعهم ابن عباس علماً ، وفهماً ، وحلماً .

وكان يجمع ابن عباس فى شخصيته بجانب علمه الواسع ، وأخلاقه الدمثة ، وعدم التزمت الممقوت ، ذلاغة اللسان ، وقوة الحجة ، وجمال الهيئة ، وصباحة الوجه ، فكان يستهوى ناظره ، ويفلج مناظره . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده .

ثم هو بعد ذلك أبو الأملاك من آل العباس ، أولئك الذين بلغت بغداد على أيديهم من المدنية والحضارة ، وسعة الملك ، وعظمة السلطان ، وأبهة الخلافة ، ما لم تبلغه دولة من الدول الإسلامية .

وبالجملة فابن عباس رضى الله عنه من الخالدين ، ألا ترى اسمه يتردد على ألسنة العلماء والفقهاء ، وفى المعاهد الإسلامية ، وفى الحلقات العلمية ، وسيبقى اسمه يتردد حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فحق للحجازيين أن يفخروا بنابغتهم ما فخرت شعوب الأرض بعلمائها والنابغين من أبنائها .



عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

هاجر عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من مكة إلى المدينة المنورة مع من هاجر إليها من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ يؤاخى فى المدينة بين المهاجرين والأنصار تأليفاً لقلوبهم . ولقد كان لهذه المؤاخاة أثر حميد فى تآلفهم وتحابهم وتكونت من جرائها وحدة قوية دكت كل ما يعترضها أو يقف فى سبيلها عائقاً عن الوصول إلى الهدف الذى رسمته لنفسها .

ومما يجب أن يحمد لأهل المدينة ذلك العطف الذى يذكره لهم إخوانهم المكيون فإنهم برهنوا بما أبدوه لهم من كرم الوفادة وحسن المؤاخاة وجميل العشرة على أخلاق عالية لم يفز بالاتصاف بمثلها سواهم . ولا أغالى إذا قلت إن تلك الأخلاق والصفات التى منحوها أخلاق وصفات ملائكية محضة لم تعلق بها أوضار الحياة المادية التى يحياها العالم اليوم !

انظر لأهل المدينة يشاطرون المهاجرين إليهم من أهل مكة دورهم وأموالهم ويذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك فمن كان فى عصمته منهم زوجتان يطلق إحداها عن طيب خاطر ليتزوجها أخوه المكى.

يا للنبل ، ويا للكرم ، ويا للانسانية ! من لهذه الصفات بعد هؤلاء الناس ، نعم وقف المكى بجانب المدنى شاهراً سيفه لا يتحرج عن قتل أقرب قريب له إذا هاجم المدينة وأراد بها سوءاً اعترافاً بفضل أهلها عليهم . واستعاض المهاجرون عن أهلهم وبلادهم بالأنصار واتخذوهم أهلا بأهل وخلاناً بخلان وحببت إليهم المدينة فكانت لا تقل منزلتها فى قلوبهم عما تكنه نفوسهم فى أعماقها من الحب الشديد لمكة موطنهم الأول . ولكنهم إنما كانوا جميعاً يذبون عن دينهم الذى ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخـواناً .

وكان نصيب ابن عوف أن آخاه رسول الله ﷺ مع « سعد بن الربيع » الأنصارى فذهب سعد بأخيه إلى داره وأكرم وفادته وجمع ماله فشطره إلى شطرين وقال له « يا عبد الرحمن إنى من أكثر الأنصار مالا فأنا مقاسمك وعندى امرأتان فأنا مطلق احداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها »

فأجابه عبد الرحمن « بارك الله لك فى أهلك ومالك » . وامتنع من أخذ شىء من أخيه وخرج ينشد السوق ليتجر فيه . وطبيعى أن عبدالرحمن كان ضليعاً بأمور البيع والشراء فهو ابن بيئة تجارية كانت لا تعتمد فى معاشها إلا على التجارة . فلقد كان لأهل مكة رحلات تجارية منظمة وكانوا يضاربون بسلعهم فى مختلف الأسواق سواء كانت هذه الأسواق فى داخل الجزيرة العربية أو فى مصر أو فى الشام أو فى الحبشة . وكانت هذه الأعمال تستغرق معظم أوقاتهم وكل حديث لهم فى مجتمعاتهم ومنتدياتهم لابد أن يتخلله ما يمت إلى البيع والشراء بصلة وبالجملة فلقد كانت بيئة المكيين التى نشأ فيها عبد الرحمن بيئة تجارية فلا غرابة إذا رأيناه يسرع إلى السوق ويطلب المعاش من اخلاف السلع . ولكننا لا نلبث أن نرى عبد الرحمن قد تكوّن لديه رأس مال يأخذ فى التضخم شيئاً فشيئاً وبعد مرور بضعة أعوام عليه يطالعنا ابن عوف بثروة هائلة يملك بها عنان الأسواق التجارية وإذا هو أثرى اثرياء المدينة .

إذاً فلقد كان عبد الرحمن رجلا عصاميا كون نفسه بنفسه ، فقد أتى من مكة فقيراً معدما لا يملك شيئاً وكان أن تآخا مع أحد أثرياء المدينة فيعرض عليه هذا شطر ماله وإحدى زوجتيه فيأبى أن يأخذ منه شيئا هو فى شدة الاحتياج إليه فى ذلك الوقت فيرينا من نفسه خلة هى لعمرى خلة من يحس برجولته المكتملة ويسرع إلى السوق خلو اليدين فيتجول فيه ذهابا وإيابا كصغار الباعة غير آبه بما يرمق به أمثاله من نظرات الاستخفاف . فلا نلبث أن نرى بين يديه رأس مال لا بأس به يتعهده عبد الرحمن بعنايته وينميه بمقدرته الاقتصادية العجيبة فتطل عليه بعد أعوام قلائل فإذا نظرات الاستخفاف التى كان يرمق بها فى مبدأ أمره قد تحولت إلى نظرات إكبار وإعجاب . وإذا هو ملك التجارة والمتصرف الوحيد فى صعود الأسعار وهبوطها فى الأسواق ، وإذا هو المثل الأعلى فى المقدرة التجارية والكفاية الاقتصادية .

* * * *

فلو أردنا أن نقارب بين عصامية عبد الرحمن فى ذلك الوقت وبين العصاميين الحاليين من رجال الاقتصاد الذين تطنطن الجرائد والمجلات باسمائهم فى كل وقت وعند كل مناسبة ، لوجدنا اقتصادينا هذا قد سبقهم بمراحل ، فعبد الرحمن لم يلج فى تنمية ماله طريقا غير مشروعة مما يسهل عليه الربح كالاكتساب عن طريق الربا مثلا الذى لا يستطيع عصاميو اليوم أن ينموا أموالهم إلا عن

طريقه . ولم يعرف فى زمن عبد الرحمن « الامتياز » فنقول إنه حصل على امتياز كذا من الأصناف لا يسمح لغيره فى جلبها فكان سببا فى تضخيم ثروته ولم يعمد إلى طريق المساهمة المالية التى هى عماد تضخيم الثروات فى عصرنا الحالى وإنما كان ينمى ماله بالمضاربات التجارية المشروعة .

فعبد الرحمن رجل ممعن فى العصامية بذ بعصاميته أبناء الأجيال المتعاقبة وتلك موهبة أودعها الله فيه لايجاريه فيها إلا القليلون النابغون فى فن الاقتصاد فإذا قلنا إن عبد الرحمن كان عصاميا فلا نعنى به إطلاق هذا اللقب عليه كما يطلق على عصاميي اليوم الذين لولا الطرق التى قدمنا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شىء قل أو كثر فعصاميو اليوم لا يبلغون أدنى الدرجات فى منزلة عبد الرحمن . بل إننا نطلق عليه لقب عصامى بمعناه الصحيح ونريد به معنى العبقرية والنبوغ فى فن الاقتصاد بكل ما تشتمل عليه هاتان الكلمتان من معان .



واضعو نواة المدارس في الأمصار

زيد بن ثابت ـــ عبد الله بن مسعود
عبادة بن الصامت ـــ معاذ بن جبل ـــ عبد الله بن عمرو

ان كانت الأنجم الزهر تسطع بنورها فى حلك الليل فيهتدى بها الضالون فى مهامه القفر ، ويسترشد بضوئها المتحيرون فى لجج البحر ، فإن الحجازيين كانوا فى عصرهم الذهبى كالكواكب الوضاءة يستضىء بهم العالم فى ظلمات الكون الدامسة ويصلون بهديهم إلى طريق السعادة والرشاد فما من أمة أنعم الله عليها بنعمة الاسلام ، وبلغت من الحضارة والعمران ما بلغت ، وقطعت فى مراحل العلم والعرفان ما قطعت إلا وكان للحجاز اليد الأولى فى مدار حركتها ، وللحجازيين اللبنة الأساسية فى بناء صرحها . افتتح الحجاز العراق ، وفارس ، ومصر ، والشام ، واليمن ، والهند ، والأندلس ، وافريقية ، وضم إليه نجداً ، واليمامة ، والدهناء ، والجزيرة . وكانت كل هذه الأمم التى تسكن هذه الأقاليم الشاسعة منحلة العرى مفككة الأوصال لا يعلمون أين وجهتهم فى الحياة ، ولا إلى أين ينتهى بهم القرار ، ذاهلين عما حولهم خاملين فيما بينهم ، تنخر فيهم الفوضى ويفتك بهم الاضمحلال ، منوا بولاة جائرين وعمال ظالمين وإدارة فاسدة تسيطر عليهم وتسير دفتهم وتسوقهم سوق الأغنام إلى مذابح الأطماع والشهوات .

وكان الناس فى ذلك الوقت أشبه ما يكونون بنائم ضغط على صدره كابوس قوى شل حركته وخدر أعصابه . فجاء الفتح الاسلامى ورفع ذلك الكابوس عنهم وأيقظهم من سباتهم ، فانتبهوا من غفلتهم . فوجدوا أمامهم رسل الانسانية وأئمة الهدى يلوحون لهم بألوية الحرية ، وأعلام العلم وينادونهم باسم الاسلام أن هبوا لتغذية أرواحكم وعقولكم بالمعارف السماوية التى اختارنا الله لأن نكون أساتذة الكون فيها ، فأقبل الناس عليهم أفواجاً يرتشفون بلهفة من معينهم العذب الذى

لا ينضب وقد أبيح ورده لكل وارد .

فكان بالعراق عبد الله بن مسعود واضع نواة المدرسة العراقية التى ازدهرت فى عصر العباسيين ذلك الازدهار العجيب ، وتبلورت علومها — على حد تعبير الأستاذ المحقق أحمد أمين — واستقرت فى شخص الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان وتوجهت تلك المدرسة بمذهبه الشهير .

وكان أول أستاذ فاز به المصريون عبد الله بن عمرو واضع نواة المدرسة المصرية التى توجت فيما بعد بفخر المصريين الليث بن سعد .

أما الشام فقد نزل به عبادة بن الصامت فوضع أول لبنة فى أساس المدرسة الشامية التى كان من خريجيها أعلام علمائهم .

وبعث معاذ بن جبل إلى اليمن فى عهد رسول الله ﷺ فوضع نواة المدرسة اليمنية التى أنجبت أئمتهم فى الدين .

فكان لهؤلاء الصحابة الأعلام وغيرهم — ممن تثقف على يد الأستاذ الأول والمعلم الأعظم محمد بن عبد الله — الأثر الحميد فى تكوين المداس الاسلامية وتهيئة العقول لتلقى العلوم المتنوعة التى كانت تنتظر المسلمين فى حياتهم الجديدة التى شيدوا فيها حضارتهم الخالدة .

ولقد امتاز علماء الصحابة رضوان الله عليهم بصفات سامية أهلتهم لأن يكونوا بحق أساتذة الكون وأمناء الأمم . تحلوا بالصدق وتزودوا بالاخلاص ، وحافظوا على ما أوتوا من العلم وأدوه كاملا غير منقوص منه ولا مزيد فيه . ما طلبوا بمعارفهم عرض الدنيا وما أرادوا على ما صرفوا أنفسهم له أجراً ، فتبارك علمهم وارتفع شأنهم وخلد ذكرهم وبعد صيتهم . وكان أن وقر فى النفوس احترامهم وأشربت القلوب بحبهم وأجمعت أبناء الأجيال المتعاقبة على تعظيمهم .

وما زالوا ولن يزالوا المثل العليا والأسوة الحسنة للمقتدين بهم والسالكين سبيلهم . وما أحوجنا اليوم لأمثالهم ، وحبذا لو نرى فى وقتنا الحاضر من سلائلهم أشباههم ، إذاً لاهتدينا سواء السبيل ، ولعاد لنا مجدنا الأثيل . ولنعرض هنا فى كلمة عجلى شيئاً من تراجم هؤلاء الأجلاء .



« زيد بن ثابت رضى الله عنه »

من أجلاء الصحابة ، ومن فطاحل علمائهم تلقى دروسه فى المدرسة المحمدية وأتقن علومها ومعارفها وتخصص فى علم الفرائض فكان وحيد زمانه فيها وكان عمر بن الخطاب رضى الله يشح به فلا يتركه يخرج من المدينة ، لما يحدثه خروجه من الفراغ العظيم فى عاصمته ، وكان عبد الله بن العباس رضى الله عنهما على عظم قدره يأخذ بركاب بغلته ويقول « هكذا يجب أن يفعل بالعلماء والكبراء » وهذا يدلنا على ما لزيد من المكانة العلمية الممتازة وعلو منزلته المحترمة بين معاصريه ، وعلى ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين من دماثة الأخلاق ومعرفة الفضل لأهل الفضل ، فلا يغمطون الناس حقوقهم ولا ينفسون عليهم ما آتاهم الله من فضله .

وكان زيد بن ثابت حصيفاً فى رأيه بليغاً فى بيانه . وقوراً فى هيئته يجادل الخلفاء فى الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم . إذا ظهر له الصواب فى مسألة وقف دونها لا يعدل عن رأيه فيها ويضرب الأمثال فى تعزيزها لم تمنعه هيبة عمر فى خلافته من أن يرد عليه بما يراه الحق ويجادله فيه مجادلة صريحة ويخاطبه كما يخاطب النِّدُّ نده انتصاراً للحق وكان عمر يصغى لقوله ويعمل بإرشاده وينزل على رأيه دون أن تأخذه العزة أو يغويه الغضب .

تصدر زيد للافتاء فى المواريث فكان مفتى العاصمة العمرية الذى لا يجارى وقد تقدم أن ذكرنا فى خطبة عمر يوم الجابية قوله : « من أراد أن يسأل عن المواريث فليسأل زيد بن ثابت » مما يدل على نبوغه فى هذا الفن .



« عبد الله بن مسعود رضى الله عنه »

عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان من حملة القرآن المجودين له العاملين بأوامره المنتهين بنواهيه ، وكان له مقام ممتاز بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو أحد من نالوا لقب (حبر الأمة) .

يقول عبد الله بن مسعود : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ علىّ ، فقلت كيف أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إنى أحب وفى رواية إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى ، قال فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » فقال لى حسبك ، فنظرت إليه وقد اغرورقت عيناه وقال « من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » ومن هذا يتضح أن ابن مسعود كان بجانب تفقهه فى الدين مقرئاً فذاً يرتل القرآن ترتيلا ويتلوه كما أنزل ، يشهد له رسول الله ﷺ بقوله : من أراد أن يقرأ القرآن الخ . وكان يشجى بتلاوته من يسمعه فقد اغرورقت عينا رسول الله من قراءته رضى الله عنه .

أما تبحره فى العلوم الدينية فقد قال مسروق : لقد جالست أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالآخاذ والآخاذ يروى الرجل والآخاذ يروى الرجلين والآخاذ يروى العشرة والآخاذ يروى المائة والآخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم فوجدت عبد الله بن مسعود من الآخاذ . وقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه لا تسألونى مادام هذا الحبر فيكم يعنى ابن مسعود . وعلى كلٍ فلقد كان ابن مسعود من ذوى الشخصيات القوية البارزة ورئيس القراء فى زمانه . وقد فاز العراق بهجرة عبد الله بن مسعود إليه وكان أول لبنة وضعت فى المدرسة العراقية على يد هذا العالم الجليل الذى أخذ عنه العراقيون علوم دينهم رضى الله عنه .



« عبادة بن الصامت رضى الله عنه »

يقول خالد بن معدان « لم يبق من أصحاب رسول الله ﷺ بالشام أحد كان أوثق ولا أفقه، ولا أرضى من عبادة بن الصامت وشداد بن أوس » ذهب عبادة إلى الشام فيمن ذهب اليها من أصحاب الرسول . وكان ضليعاً بالفقه ، فنشر علم الدين بالشام وعلمهم ما يحتاجون إليه منه فى أمور دينهم ودنياهم وكان على جانب كبير من الحشمة والوقار وعلى يديه تخرج أكابر علماء الشام ومنه وبه تأسست المدرسة الدينية الاسلامية التى توجت فيما بعد بالأوزاعى وغيره من أفاضل العلمـاء .



« معاذ بن جبل رضى الله عنه »

شاب من شبان المدينة المنورة ، وأحد خريجى المدرسة المحمدية الممتازين ، تهذب فيها تهذباً راقياً ، وأحاط بعلومها ومعارفها إحاطة تامة ، فكانت شخصيته تجمع بين نضارة الشباب ووقار العلماء ، وكان قليل الكلام صادقه ، يحمل بين جنبيه نفساً صافية طاهرة تتجلى معالم طهرها وصفائها على ملامح وجهه فتكسوه رونقاً وإشراقاً يجتذبان النفوس إليه فتحبه وتوقره معاً .

بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن يعلم اليمنيين ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويفصل فى مشاكلهم .

وكان لمعاذ من وفرة عقله ما يؤهله للقضاء وله من المرونة الفكرية ، واستعداده الفطرى فى حل المشاكل القضائية ما يساعده على أن يحكم فى كل قضية بما يلائم ما يحيط بها من مؤثرات مسترشداً بحكم الله فيها . وقد سأله رسول الله ﷺ « بم تقضى إن عرض قضاء » فأجابه « أقضى بما فى كتاب الله قال فإن لم يكن فى كتاب الله قال فقلت أقضى بما قضى به الرسول قال فإن لم يكن قال قلت أجتهد رأيى ولا آلو قال فضرب صدرى وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول لما يرضى رسول الله » [1] .

وكان عبد الله بن عمر يقول « حدثونا عن العاقلين ، قيل من هما ، قال معاذ وأبو الدرداء » مما يدل على وفرة عقل معاذ .

ذهب معاذ إلى اليمن وأدى مهمته بما يتكافأ مع عظم مسؤوليته الملقاة على عاتقه ونفخ فى اليمنيين من روحه السامية ما حملهم على اتباع سبل الرشاد فى غير عنف ولا شدة بما يتناسب وحالتهم ، وبما عرف به من دماثة الأخلاق ، ولين الجانب ، وطيب العشرة ، فأحبه اليمنيون من كل قلوبهم وعظموه ووقّروه ، وأحلوه بينهم المكانة التى تليق به . وبذلك وضع نواة المدرسة اليمنية التى

---

(١) طبقات ابن سعد س : ١٠٨ ج ٢ .

توجت فيما بعد بأساطين العلم فى اليمن . ومن أوليات معاذ أنه هو أول من سن الحلقات يقرأ فيها فى المساجد ، وبعد أن فرغ من أداء مهمته باليمن عاد إلى المدينة ، ثم ذهب إلى الشام ، ولقد أثر خروجه من المدينة إلى الشام فى نفس عمر فقال « لقد أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه » .

ولما ذهب إلى الشام اشترك مع عبادة بن الصامت فى وضع نواة المدرسة الشامية ، ولولا أن المنية عاجلته لكان لمعاذ من الآثار الخالدة ما لايحصى ، ولكن أراد الله أن يكون هذا الشاب الممتلىء نوراً وحكمةً وعلماً من ضحايا طاعون عمواس الذى نزل بالشام فى خلافة عمر بن الخطاب عام ١٨ هـ رحمه الله ورضى عنه .



« عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه »

تضلع بالعلم الاسلامى تضلعاً وافياً وذهب مع أبيه عمرو إلى مصر حاملًا علوم الشريعة الاسلامية إليها وكان ممن لا يكتمون مما علموا شيئاً ويجابه الملوك والأمراء دون أن يخشى فى الله لومة لائم ، شديد الصراحة فى الحق لا يبالى لمن يقوله . عند منصرف معاوية من وقعة صفين قال عبد الله كنت أسير بين أبى وبين معاوية فقلت يا أبت إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار بن ياسر تقتلك الفرقة الباغية فقتلتموه ، فقال أبى لمعاوية اسمع ما يقول هذا ، فقال معاوية ألم تكن معنا ؟ قلت أنا معكم ولكن لا أقاتل ، فقد قال لى رسول الله ﷺ « لا تعص أباك حيا » أو كما قال .

وكان عبد الله حريصاً على ما يسمعه من رسول الله ﷺ قال ابن عمرو استأذنت من رسول الله ﷺ فى كتاب ما سمعت منه فأذن لى فكتبته فى صحيفة فكان عبد الله يسمى صحيفته تلك : الصادقة .

وعلى هذا يكون عبد الله هو أول من سن للناس تدوين الحديث فى الصحف وعنه أخذ المصريون علوم دينهم ، فكان بذلك أول محرك للحركة الفكرية فى مصر ، وأول من عمل لواء الثقافة الإسلامية على ضفاف النيل رحمه الله ورضى عنه .



حســان بن ثابت رضى الله عنه

إن كان لكل حزب على ما نرى فى الوقت الحاضر صحيفة تنافح عنه وتبث تعاليمه وتؤيده فى أفكاره ، وتحبذ أعماله ، وتبذل ما قويت عليه من الجهود الأدبية ، فى كل ما يكفل لحزبها الانتصار .

فإن حسان بن ثابت كان كذلك فى دلك الوقت يقوم مقام الصحيفة العظيمة فى تأييد حزب المسلمين ، فكان ينافح عنهم ، ويرد على أعدائهم بما أوتيه من قوة البيان وطلاقة اللسان ، وبذل فى خدمة الدعوة الإسلامية مجهوداً أدبياً جباراً يحفظه له التاريخ بين طياته ما بقيت الأحياء على وجه الأرض .

كان حسان من فحول الشعراء وكان له من المكانة الأدبية فى قلوب الناس ما جعل العرب تتحاشاه وتتزلف إليه خوفاً من لسانه ، فلقد استطاع حسان ان يرفع قبيلة ببيت من الشعر ويخفض أخرى بمثله . وكان قومه الأنصار يحبونه ويحترمونه ويعتزون به ، حتى بلغ من اعتزازهم به أن أحلوه بينهم محل الزعيم الخطير ، يدافعون عنه إذا اقتضاه الأمر . ولا يتخلفون عن دعوته إذا دعاهم إليه ويجيبونه إلى كل ما طلب ، وكان هو بدوره يحبهم ويفتخر بهم ، ويتغنى بمحامدهم ، ويعرض نفسه لنقمة الناس فى سبيل الذب عنهم ؛ فكان يصلت لسانه الجرىء على كل من أراد أن يمس عشيرته بسوء ، ويرمى أعداءهم بهجو أخف منه الوباء والسموم ؛ وكانت تعقد فى ذلك الوقت مجتمعات خطيرة للمفاخرة ، فلم يعرف عن حسان أن غلب فى موقف منها بل كان دائماً غلاباً لمفاخريه فائزاً عليهم ، موفقاً فى جميع ما يقوله إلى أبعد حدود التوفيق . فلما جاء الإسلام انضم مع قومه إلى صفوف المسلمين ، ووقف بجانب صاحب الدعوة الإسلامية يناصره ، ويكافح عنه بحرارة صادقة ، وإيمان قوى ، وعقيدة راسخة ، حتى لقب بشاعر النبى ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ ينصب له منبراً يقوم عليه وينافح عنه ، وما كان شىء أشد من رشق النبل على قلوب أعداء الإسلام من شعر حسان ، وقد قال فيه الرسول الأعظم ﷺ « اللهم أيّده بروح القدس » .

ولأجل أن تعلم مدى مكانة حسان عند قومه وكيف كانت منزلته فى قلوبهم أسوق هذه الحكاية نقلاً عن ديوانه (ص ١٣١) وتشير نفس الحكاية إلى أن حساناً لم يغلبه مدة حياته فى الشعر أحد .

« ذكروا أن الأنصار اجتمعوا فى مجلس فتذاكروا هجاء النجاشى إياهم ، فقالوا : من له ؟ فقال الحارث بن معاذ بن عفراء : حسان له ، فأعظم ذلك القوم ، وقالوا نأتى حساناً وإن طعامه ليغلبه من ضعف حنكه ونعرضه للنجاشى فلعله يغلبه ولم يغلبه أحد قط . لا نفعل . قال والله لا أنزع عنى قميصى حتى آتيه فأذكر له . فتوجه نحوه والقوم كلهم معظم لذلك ، حتى دق عليه الباب ، فقال من هذا ، قال الحارث بن معاذ ، فقال افتحى يافريعة — وهى ابنته — لسيد شباب الأنصار . فلما دخل عليه كلمّه فقال أين أنعم من عبد الرحمٰن ، قال إياك أردنا قد قاوله عبد الرحمٰن فلم يصنع شيئاً . فوثب وقال كن وراء الباب واحفظ ما ألقى ، فضربته زافرة الباب فشجته على حاجبه ، قال باسم الله اللهم اخلف فى رسولك ﷺ ، فقال الحارث فعرفت حين قالها ليغلبنه فدخل وهو يقول :

أبنى الحماس أليس منكم ماجد ... إن المروءة فى الحماس قليلُ
ياويل أمكمو وويل أبيكمو ... ويلا تردد فيكمو وعويل
هجمتموا حسان عند ذكائه ... غىّ لمن ولد الحماس طويل
إن الهجاء إليكم لَبِعِلَّةٍ ... فتحشحشوا إن الذليل ذليل
لا تجزعوا أن تنسبوا لأبيكمو ... فاللؤم يبقى والجبال تزول
فبنوا زياد لم تلدك فحولهم ... وبنو صلاءة فحلهم مشغول
وسرى بكم تيس أجم مجذر ... ما لنذامة عنكمو تحويل
فاللؤم حل على الحماس فمالهم ... كهل يسود ولا فتى بهلول

ثم مكث طويلًا على الباب يقول والله ما أبحرت ، ثم ألقى علىّ :

حار ابن كعب ألا الأحلام تزجركم ... عنى وأنتم من الجوف الجماجير
لاعيب فى القوم من طول ولا عظم ... جسم البغال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف مكاسره ... مثقب فيه أرواح الأعاصير

دعوا التخاجؤ وامشوا مشية سجحاً   إن الرجال أولو عصب وتذكير
لا ينفع الطول من نوك القلوب ولا   يهدى الالهٰ سبيل المعشر البور
إنى سأنصر عرضى من سراتكمو   إن الحماس نسىء غير مذكور
ألفى أباه والفى جده حبساً   بمعزل عن معانى المجد والخير

ثم قال للحارث : اكتبها صكوكاً فالقاه إلى غلمان الكتاب .

وقبل أن نستكمل القصة نقف قليلْا بالقارىء لنطلعه على ما استنتجناه من هذا الخبر وهو أن تاريخ الصحافة فى الحجاز يبدأ من توزيع الصكوك التى كتبها الحارث وأن حسان بن ثابت هو أول من فكر فى وضع نواة الصحافة فى بلادنا .

قال الحارث : ففعلت فما مرّ بنا بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسانا بالنجاشى موثقاً معهم وأطرقوا ببابه ، فقال لابنته : ما هذا الذى أسمع ، قالت : والله ما أدرى ، قال : إن أباك كان ذا شرارة فى العرب بلسانه ، فانظرى من طرقنى فإن كانت إبل تعوى عواء الكلب توطأ أذنابها كأنها تراجع إلى ورائها فهى إبل مضربة ، وإن كانت تشكى العذارى تلوى أصابعها فهى إبل الحارث بن كعب وقد أتت بالعبد . قالت : يا أبت هي والله كما وصفت قال : نادى يابُنية أطم حسان ليأتيك قومك فيحضروا . فلم يبق أحد من عالية ولا سافلة إلا وقد جاء إلى أطم حسان ومعه سلاحه ! . فلما اجتمع الناس وضع له منبر ونزل فى يده مخصرة فقام عبد الله بن عبد المدان ، فقال : يا ابن الفريعة جئناك بابن أخيك فاحكم فيه برأيك . ما أدخلك بين ابنيك لعباً ؛ فأتى بالنجاشى فأجلس بين يديه واعتذر القوم فنادى ابنته فقال البقية التى بقيت من جائزة معاوية فأتته بمائة دينار إلا دينارين فقال : دونك هذه يا ابن أخى فعرضها أهلك وحمله بغلة لعبد الرحمٰن ؛ فقال له ابن عبد المدان يا ابن الفريعة كنا نفتخر على الناس بالعظم والطول فأفسدته علينا . قال : أليس أنا الذى أقول :

قد كنا نقول إذا رأينا   لذى جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى بياناً   وجسماً من بنى عبد المدان

•

ومن مواقف حسان الخالدة فى الاسلام هذا الموقف المشرف ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال

قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وفيهم الزبرقان بن بدر ، وعطاء بن حاجب ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن بدر ، وعمرو بن الأهتم . وكان معهم عيينة بن حصن الفزارى وكان يكون معهم فى كل سوأة ، فقال قائلهم جئناك يا محمد بخطيبنا وشاعرنا فاسمع منا ، فأمروا عطاء بن حاجب فخطب ، فقال : « الحمد لله الذى له علينا الفضل الذى جعلنا ملوكا وأعطانا شرفا ومالا، وجعلنا أكثر أهل المشرق أموالًا وسادة ، وأكثرهم عدداً ، وأيسرهم عدة مَن مثلنا أو لسنا رؤساء الناس وأفضلهم فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا وإنا لو شئنا لأكثرنا ولكن نستحى من الاكثار فأتوا بقول أفضل من قولنا أو بأمر أفضل من أمرنا » . ثم جلس وأقام الزبرقان فأنشد شعره :

نحن الكرام فلا حيٌّ يفاخرنا ... فينا الملوك وفينا السادة الرفع
تلك المكارم حزناها مقارعة ... إذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نشرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل الغر يتبع
وننحر الكوم عبطا فى منازلنا ... للنازلين إذا ما استطعموا شبعوا
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا ... من العبيط إذا لم يظهر الفزع
وننصر الناس تأتينا سراتهم ... من كل أوب فتمضى ثم تتبع

حتى فرغ من قصيدته فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس : « قم فأجب » فقام ثابت فقال :

« الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه قضى فيهما أمره ووسع كل شىء علمه ، فلم يكن شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدره أن جعلنا ملوكا ، واصطفى لنا من خير خلقه رسولًا أكرمه أباً ، وأحسنه رأياً ، وأصدقه حديثاً ، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من عباده ، ثم دعانا للايمان فآمن به المهاجرون من ذوى رحمه أصبح وجوها وأفضل فعالا ، وكنا أول من أجابه واستجاب له حين دعانا ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما » .

ثم إن النبى ﷺ أرسل إلى حسان بن ثابت ، فقيل له قد جاء وفد تميم بخطيب وشاعر وقد دعاك رسول الله ﷺ لتجيب شاعرهم قال : قال حسان فأقبلت وأنا لا أدرى ما يقول شاعرهم وأنا أهيىء أبياتاً قبل أن أصل إليهم وأنا أمشى نحو رسول الله ﷺ وأقول :

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

قال فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قام شاعرهم فقال ما قال فقلت :

إن الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة لله تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوىٰ الالهٰ وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع من أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق حقاً شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضنون عن مولى بفضلهم ... ولا يصيبهم فى موضع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطمعون ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جزع
أعطوا نبىّ الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم ... أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهل الصليب ومن كانت له البيع
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم ... شراً يخاض عليه الصاب والسلع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فرح إن أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة فى أرساغها فدع
إذا نسبنا لقوم لا ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الورع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما يحب لسان حائك منع

فإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

لا شك ولا ريب .. فتفرق القوم حين تفرقوا وهم يقولون ما يلعب بهذا الرجل ، ما خطيبنا كخطيبه ولا شاعرنا كشاعره ، فلما أراد القوم الخروج أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم .

وان هذه القصيدة الخالدة التى جرت على لسان حسان رضى الله عنه لتدلنا أبلغ الدلالة على تلك الصفات الكريمة التى اتصف بها أسلافنا الأماجد ، فحق لهم بأن يفاخروا بها ويتحدثوا عنها ، وإنها لأفضل ما يتحلى به الرجال ، فاسمع إلى حسان وهو يقول :

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع

وتأمل معى روعة هذا البيت ، وانظر الى هذا السمو الانسانى الذى ارتفع بتلك النفوس العظيمة والعقول الكبيرة إلى حقيقة التسامح فلا تحقد ولا يغيرها شىء ، وانهم الأعفة الذين أشاد الوحى بعفتهم فلا يطعمون ولا يرديهم الطمع . فحبذا لو تأسينا بهذه الأخلاق الفاضلة فى الوقت الحاضر فتعاد لنا تلك الذكرى العظيمة الطيبة والسيرة الجليلة المدوية ، ويصبح الحجازيون — كما كانوا — دعاة الخير والسلام ويستقيد لهم أهل الصليب كما استقادوا لأجدادهم .

ويتهم حسان بالجبن . ولكن بعضهم ينفى عنه هذه التهمة مستدلا أن حساناً كان يهاجى قريشا ويذكر مثالبهم ولم يبلغنا أن أحداً عيّره بالجبن . ويقول الكلبى « إن حساناً كان لسناً شجاعاً » إلى آخر ما قال . وعلى كل فإن أبرز مواقف حسان فى نصرة الاسلام كانت مواقفه وحملاته الأدبية المشهورة وبها كتب له الخلود رضى الله عنه .



خباب بن الأرت رضي الله عنه

وهذا مظهر من مظاهر العظمة ، وشكل من أشكالها المندسة فى الأفراد العاديين الذين يزخر بهم المجتمع الحجازى فى ذلك الوقت من أبناء الطبقة الفقيرة التى لا تنتمى إلى البيوتات الرفيعة ، وليس لهم من العصبية والثراء ما يجعل لهم مكاناً ملحوظاً بين مواطنيهم .

وهذا اللون من ألوان العظمة يرينا أن العظمة ليست منحصرة فى أناس دون غيرهم . وإنما هى سر يودعه الله فى نفوس من اصطفاه من خلقه ، وأن عظمة العظيم لا يحجب ظهورها فقر ، ولا يستر علائمها ادقاع ، وليست العظمة وقفاً على أولئك الذين تصطف لهم الجنود ، وتحييهم الجماهير ، وتخضع لهم الرقاب ، وتدين لهم الشعوب ولكنها أروع وأعمق وآصل عند أولئك الذين تخضع لهم القلوب قبل الجسوم ، وتذعن لهم العقول قبل التقاليد لما لهم من العظمة الأصلية غير المتصنعة وليست هى وقفاً على أولئك الذين يتصدرون المجالس ، ويرأسون المجتمعات ويحترمون الناس فيقومون لهم إذا قاموا ؛ ولا يجلسون إلا إذا أذنوا ولكنها أمكن وأسمى عند أولئك الذين تشخص إليهم البصائر قبل الأبصار وتعترف لهم النفوس فى قراراتها بأنهم القدوة التى يجب أن تمشى البشرية وراءها .

وليس كل العظماء هؤلاء الذين نراهم ، ونسمع بهم ، ويحدثنا التاريخ عنهم ممن طار صيتهم فى الآفاق ، ولهجت بهم الألسنة فى مختلف الأنحاء ، بل إن فى أفراد الناس ؛ وفى زوايا التاريخ عظماء أخطأتهم الشهرة ؛ وأغفلت ذكرهم الأيام لانزوائهم عن الأعين ، ولكنهم فى الواقع عظماء لا يقل الاعجاب بعظمتهم عن الاعجاب بعظمة الملوك فوق عروشهم ؛ وعن الاعجاب بعظمة الزعماء فى زعامتهم ، وعن الاعجاب بعظمة الساسة فى دهائهم وحنكتهم ، وجدير بعشاق العظمة وطالبيها أن يلتمسوها لأنفسهم من خلال أخلاق وعزائم هذه الطبقة إذا أعياهم نوالها من جهة أخرى ، فإن فى عظمة هؤلاء الذين أزرى بهم الفقر ، وأضرت بهم الفاقة ، واستخف بهم الناس ما تتضاءل بجانبه نفوس كثيرة ممن تحيط بهم الأتباع وتحف بهم الموالى ، يتقلبون فى نعيمهم الكاذب ، ويتملقهم الناس لعظمتهم الجوفاء فى مظهرها الخلاب المصطنع .

أما هؤلاء الذين تنبعث عظمتهم من وهج نفوسهم العالية ومن حرارة إيمانهم القوى بعقيدتهم الراسخة ومبدئهم الشريف ، لا يلاشى عظمتهم المنبعثة من مثل ذلك إرهاق ، ولا ينقص من حدوها عقوق ، ولا يضير أصحابها ما يمنون به فى هذه الحياة من شقاء وبؤس ، ولا يخل بمكانتهم ما يعتورهم فيها من بلاء ومحن ، ولا يستطيع الاضطهاد والتعذيب أن ينزلاهم عن كرسى عظمتهم . فلقد أوتوا حظاً وافراً ونصيباً وافياً من الصبر والاحتمال تذرعوا به لمقابلة ألوان الأهوال التى يلاقونها فى سبيل العقيدة التى رأوا فيها سعادتهم الروحية ، واحتفظوا بكينونتهم فى المجتمع حتى أثبتوا وجودهم فى الأحياء وأرونا كيف يجب أن يبرهن الإنسان ما دام إنساناً على إنسانيته فلا يندمج فى غيره ولا يتأثر بما يحيط به مما يعود عليه بنفع ما .

وما العظمة الحقة إلا عرفان الإنسان نفسه واحتفاظه بحقوقها فى الحياة كاملة غير منقوصة وبرهنته بشتى البراهين على ما تنطوى عليه أضالعه من عقيدة راسخة تؤيدها عزيمة ماضية ، وما تحتويه تلافيف دماغه من عقلية نيّرة تعرف الطيب من الخبيث وتميز الحسن من القبيح مستقلة فى تفكيرها فلا تتأثر بالأهواء ولا تضطرب عند مختلف الآراء .

فمن هؤلاء الذين أودع الله فى قلوبهم تلك العظمة وآتاهم من الاحتمال والجلد وقوة اليقين ما يصمدون به لصنوف الأذى دون أن يعدلوا عما حملوا أنفسهم عليه من اتباع أمثل الطرق التى اهتدوا إليها ، واقتنعوا بها رغم المعارضين والمعاندين « خباب بن الارث رضى الله عنه » هذا الرجل المستضعف البائس الفقير الذى لا يملك غذاء يومه ولا يقيم له الأحياء بينهم وزنا ، ولا يعيرونه التفاتا ، ولا يأبه بأمره أحد ، يحمل بين جنبيه نفساً عالية وعزيمة ماضية تتضاءل دونها العزائم ، فإن عظمته أبت إلا أن تزج به فى أحضان حياة مليئة بالمهالك محفوفة بالأخطار ، فآثرها على عيشه الهادى فى ظل حياته الوادعة ، ولم يحبسه الفقر ، ولم تثنه قلة الأنصار ، ولم تصده حقارة منزلته فى المجتمع عن إعلان رأيه فيما اعتزمه لنفسه واختاره لراحة ضميره ، فاعتنق الإسلام على بؤسه وضره وفاقته وفقره ، وهو عالم بما سيستقبله من الإحن والمحن فى إقدامه على ما يخالف ما أجمع عليه أشراف قومه وسروات الناس ، من نكرانهم لهذا الأمر وتنكرهم لمعتنقيه ، فلم يبال بكل ذلك وأرانا فيه الرجل الحقيق بالاكبار والإعجاب . دعى إلى ترك دينه فلم يجب ، فاضطهد وعذب بعد أن أغرى ووعد بحلو الأمانى فلم ينثن وتشبث بعقيدته ، فاستغل الكفار ضعفه وقلة ناصره فأنزلوا به أشد النقمة فكانوا يضربونه أينما وجد وحيثما حل بالعصى والسياط ، وبالغوا فى تعذيبه وتفننوا فى إيلامه وإحراجه فأوقدوا له النار ووضعوه فيها على أن يترك ما دخل فيه ، فلم يزده ذلك إلا إيمانا وتثبيتاً ، حتى أذن الله لرسوله بالهجرة فأذن بها لأصحابه

فهاجر مع زملائه المسلمين إلى المدينة المنورة دون أن ينزل عن عقيدة اعتقدها ومبدأ اعتنقه ودين هداه الله إليه .

وقد عرف له أصحاب رسول الله ﷺ جلده واحتماله وصبره وتشبثه بدينه ، فكان بينهم أخاً كريماً ، وزميلا محترماً . يقول الشعبى :

« دخل خباب بن الارت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه وقال : ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد ، قال له خباب : من هو يا أمير المؤمنين ، قال : بلال ، فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ماهو بأحق منى ، إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به ولم يكن لى أحد يمنعنى فلقد رأيتنى يوماً أخذونى وأوقدوا لى نارا ثم سلقونى فيها ثم وضع رجل رجله على صدرى فما اتقيت الأرض أو قال برد الأرض إلا بظهرى . قال ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص »[1] .

بهذا الاحتمال العجيب ، وبهذا الثبات النادر ، وبهذه المحافظة على المبدأ ، والتشبث بالعقيدة استطاع خباب أن يجالس الخليفة على متكئه ، ويقف فى مصاف العظماء ، ويسطر اسمه فى عداد الخالدين رضى الله عنه .

أفلا يجب على تاريخ العظماء أن يضع هذا العظيم الحجازى على أقل تقدير جنباً إلى جنب مع أبطال حرية الفكر الذين ثبتوا على عقائدهم رغم التعذيب والاضطهاد .

(١) طبقات ابن سعد ص ١١٧ ج ٣ .

سعد بن عباده وابنه قيس رضي الله عنهما

كان سعد بن عبادة من أشراف المدينة ومن أثريائها المعدودين ، وكان من ذوى النفوس الكبيرة ومن الأفراد القلائل الذين يعرفون قيمة الحياة ، فيجعلون ثراءهم بين يدى المصلحة العامة ، وينفقون أموالهم فيما فيه خيرهم وخير المجتمع الإنسانى فينفعون وينتفعون فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة حسن الثواب ، وينالون بذلك الحمد ، ويحق لهم به الخلود .

كان سعد مثرياً وكانت ثروته ثروة للأمة ، لا كأولئك الذين يختزنون الثروات ولا يصرفونها إلا على كل ما يضمن لهم عيشاً مرفها ، دون أن يكون للمجتمع الذى يحتضنهم ويحتضن ثراءهم نصيب فيها ، فكان رضى الله عنه يحمل الكل ، ويواسى الضعيف ، ويطعم الفقير ، ويسارع إلى تعضيد كل عمل إنسانى ، وتشجيع كل مشروع يعود بنفعه على الأمة والوطن . وقف ماله وجهوده على ذلك ، لا تنزل نازلة بالأمة إلا وسعد أول من يتقدم لتخفيف وطأتها فيتبرع بكرم وسخاء فائقين ، وقلما تجد عملا ذا شأن إلا ولسعد بن عبادة فيه أثر عظيم ، حتى عدّ فى طليعة أهل النبل والنجدة ؛ وأكبره الناس وأعجبوا بخصاله وفعاله فأحبوه وسودوه ، فتزعم قومه ومنحته عشيرته وذووه ودّهم ، وأسلموه قيادهم ، لما اشتهر به من الفضل والسؤدد ، والكرم ، وحسن الرأى ، وكان مع كل ذلك لا ينى عن السعى وراء كلّ ما يجلب له محمدة ويوسمه بمنقبة ، ويكسبه مفخرة ؛ فلما جاء الإسلام كان سعد من السابقين إلى اعتناقه ، وساهم بأكبر نصيب فى إعلاء شان الدعوة الإسلامية .

وورث ابنه قيس منه صفاته وأخلاقه فلم يختلف عنه فى شىء وكان له من الأريحية ما يثير الإعجاب والإكبار به ،خرج ذات مرة فى سرية بعثها رسول الله ﷺ لمحاربة أناس من المشركين فنفد طعام الصحابة واشتد بهم الجوع حتى أكلوا الخمط ، ورأى قيس ما حل بالجيش من المجاعة فدفعته الأريحية إلى أن ذهب إلى بعض الأعراب فى تلك النواحى وطلب منهم أن يبيعوه جزراناً بتمر يؤديه لهم بالمدينة ، فطلبوا منه أن ينتسب فانتسب لهم ، فقال له اعرابى من جهينة عرفت نسبك وباعه من الجزران ما أراد ، فأشهد قيس على نفسه نفراً من الصحابة فشهدوا وامتنع عمر بن الخطاب من الشهادة

لعلمه أن قيساً لا مال له وإن كان هناك مال فإنما هو لأبيه سعد فلما رأى الجهنى امتناع عمر من الشهادة قال : ما كان سعد ليقصر بابنه وأرى وجهاً حسناً وفعلاً شريفاً ، وأخذ قيس ينحر للجيش كل يوم ، فلما رأى أبو عبيدة وكان أمير السرية أن قيسا لا يكف عن النحر قال عزمت عليك ألّا تنحر أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ، فقال له قيس : يا أبا عبيدة أترى أبا ثابت — يعنى أباه — يقضى ديون الناس ، ويحمل الكل ، ويطعم فى المجاعة ، ولا يقضى عنى تمراً لقوم مجاهدين فى سبيل الله ، فأوشك أبو عبيدة أن يلين ويتركه لشأنه ، لولا أن عمر بن الخطاب كان كلما لان أبو عبيدة يقول له اعزم فمازال أبو عبيدة يعزم على قيس حتى كف عن النحر مرغما وما بقى من الجزران جعلها للجيش يتعاقب أفراده ركوبها ؛ وبلغ خبر هذه المجاعة سعداً فقال . إن يكن قيس كما أعرف فسينحر لهم ، فلما عاد إلى المدينة سأل سعد ابنه ، فقال . ماذا صنعت فى المجاعة ، قال نحرت ، قال : اصبت ؛ ثم ماذا ، قال نحرت ، قال أصبت ؛ ثم ماذا ، قال : نحرت ، قال : اصبت ؛ ثم ماذا ، قال نهيت قال : ومن نهاك ، قال أبو عبيدة أميرى ، قال : ولم ، قال : زعم أنه لا مال لى وإنما المال لك ، فقال سعد لابنه : لك أربع حوائط أدناها تجد منه خمسين وسقاً .

وقدم الأعرابى مع قيس فأوفاه أوسقه ، وحمله ، وكساه ، فبلغ النبى ﷺ فعل قيس فقال : « إن الجود من سمت أهل ذلك البيت » .

ولقيس فيما بعد ذلك كثير من الأعمال الدالة على نبله وكرمه ، وقفت به مرة عجوز وقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ببيتى فقال : ما أحسن هذا السؤال لأكثرن جرذان بيتك وملأ بيتها طعاماً .

وامتاز قيس أيضاً بالدهاء فكان سياسياً ماهراً ومن ذوى المكيدة فى الحروب مع النجدة والبسالة يقول الدحلان : « من وقف على ما وقع بين قيس ومعاوية رضى الله عنهما حينما ولاه على كرم الله وجهه على مصر لرأى العجب العجاب من وفور عقله »[1] .

ولقد اجتهدت فى أن أطلع على شيء من ذلك وأتحدث به إلى القراء الكرام فلم يصل إلى يدى شيء من ذلك —[2] وعلى كل فإن كلام الدحلان يدلنا على ما كان لقيس من البراعة فى هذا المضمار وإلا لما استطاع أن يقف أمام معاوية ذلك الرجل الممعن فى الدهاء ويجاريه فيه ، ويقول قيس عن نفسه

---

(١) السيرة النبوية للدحلان .

(٢) ولم ينوه الدحلان عن الكتاب الذى فيه البحث ليرجع إليه الإنسان فمعذرة .

« لولا الاسلام لمكرت مكرا لم تطقه العرب » .

وبالجملة فلقد كان قيس من الأفذاذ الذين لا يقاس بهم غيرهم لخطورة شأنه ، طلب عمرو بن العاص أثناء فتحه مصر مدداً من عمر بن الخطاب ، فبعث إليه قيساً بمفرده وكتب له ما معناه « إنى بعثت لك رجلا بألف هو قيس بن سعد بن عبادة » وعمر من قد عرفنا صدق فراسة وصحة حدس وحسن تقدير للرجال وهو أجل من أن يلقى القول على عواهنه وأكبر من أن يكيل المدح جزافاً لأى رجل كائنا من كان .



« أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه »

لقد أوتى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه بجانب ما أوتيه من العلم ، صوتاً حسناً يشجى به كل من سمعه فلقد كان صحابياً جليلا ، وعالماً من أشهر علماء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ومقرئاً فذاً يندر أن يوجد مثله فى حسن صوته بين الصحابة : سمع رسول الله ﷺ قراءة أبى موسى فقال « لقد أوتى هذا من مزامير داود » .

وقال أنس إن أبا موسى الأشعرى قام ليلة يصلى فسمع أزواج النبى ﷺ صوته وكان حلو الصوت فقمن يسمعن فلما أصبح قيل له إن النساء كن يسمعن فقال لو علمت لحبرتكن تحبيراً ولشوقتكن تشويقاً (١) .

ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب البصرة فأقام أميراً عليها مدة خلافته والناس راضون عنه معجبون بعدله قيل فيه ما كان يشبه كلام أبى موسى إلا بالجزار الذى لا يخطىء المفصل . ويروى عنه أنه قال لا ينبغى للقاضى أن يقضى حتى يتبين الحق كما يتبين الليل من النهار (٢) .

وكان أبو موسى يقوم بتعليم الناس القرآن وهو أمير رغم مشاغل إمارته وأظن أن عمر لم يوص له بإمرة العراق بعد وفاته بمدة أربع سنين إلا من أجل ذلك حتى يكثر حملة القرآن فى تلك النواحى .

وكان رضى الله عنه شديد الزهد شديد الحياء من الله تعالى فقد كان إذا أراد أن يغتسل لا ينتصب واقفاً حياء من ربه ولعمرى ان هذا هو الاحسان فى العبادة وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولما عزله عثمان بعد مضى الأربع السنين كما أوصى بذلك عمر كتب إليه « إنى لم أعزلك عن عجز ولا خيانة وإنى لأحفظ قيد استعمال رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر اياك وإنى لأعرف فضلك وإنك

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٦ .

(٢) طبقات ابن سعد .

لمن المهاجرين الأولين ولكن أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر وقد أمرته أن يعطيك « ثلاثين ألف درهم » فقال ابو موسى والله لقد عزلني عثمان عن البصرة وما عندى دينار ولا درهم حتى قدمت على أعطية عيالى من المدينة وما كنت لأفارق البصرة وعندى من مالهم دينار ولا درهم ولم يأخذ من ابن عامر شيئاً [1] .

وإن رجلا بلى البصرة المعلوم أمر غناها ردحاً من الزمن فلا يطمع فى شىء منها ولا يستأثر لنفسه بشىء من خيراتها لجدير بأن يكون مثلا أعلى للاقتداء به فى العفة والنزاهة . وإن أمة سمت نفوس أبنائها حتى بلغ الأمر بأمرائها أن يأتيهم أمر العزل وليس بأيديهم دينار ولا درهم لقيمنة . . بأن يستولى سلطانها على القلوب والنفوس قبل أن يستولى على المدائن والحصون .

(١) نقلا عن طبقات ابن سعد « ج ٥ ص ٣٢ » .

« أُبَىُّ بن كعب رضى الله عنه »

كان أبى بن كعب أقرأ الناس بعد رسول الله ﷺ للقرآن فقد قال الرسول عليه السلام : « أقرأ أمتى أبى بن كعب » وقال عمر : أبى أقرؤنا . فمتى يكون منّا من يقرأ القرآن مثل أبى بن كعب فى هذا الزمان ؟ .

حبذا لو يعيد التاريخ نفسه ويكون فى الحجازيين اليوم من هو أقرأ أمة محمد بعد أبى بن كعب للقرآن المجيد ، وحبذا لو نرى فينا من يحبرنا بقراءته تحبيراً مثل أبى موسى الأشعرى ويشوقنا بتلاوته كلام الله إلى الله تشويقاً .



« عبد الله بن حنظلة الغسيل [1] »

يرى الناظر فى تاريخ الأمة الحجازية من ألوان العظمة وأصناف البطولة ما يجعله يؤمن بأن هذه الأمة لم تدع سبيلا من سبل الحياة الشريفة إلا ولجته وتركت لها فيه أثراً محموداً وذكريات خالدة .

فإن الحجاز لم يعدم فى أدواره التاريخية من أبنائه من يضيف إلى صفحاته البيضاء الناصعة صفحة جديرة بالاعجاب خليقة بالتقدير يرتفع بها رأسه عالياً . فما من ميدان من ميادين الجهاد والكفاح فى سبيل الغايات النبيلة إلا وله فيه جولات بارزة لا يمكن لأمة من الأمم أن تعير الحجاز بقصوره فيه أو تتحداه بشىء لم يكن لأبنائه فيه يد .

فإن كانت الأمم الحية اليوم تثور وتتظاهر إذا أحست بإجحاف أو غمط يراد بها من قبل من بأيديهم أمرها فى بعض مالها من حقوق وواجبات فإن تاريخ الحجاز ملىء بأمثال هذه الثورات الدالة على الشعور الحى المتأصل فى نفوس الحجازيين وما كانوا يريدون بثوراتهم تلك التى كانوا يخوضون غمارها سوى حياة شريفة يرفرف عليها علم العدل والانصاف وتسودها روح الفضيلة والتقوى وكانت مواقفهم فيها مواقف مشرفة خالدة وما كانت كل ثوراتهم الا استنكاراً لباطل أو طلباً لحق فتارة يبوءون بالنصر والفوز ، وأخرى يذهبون شهداء مطالبهم .

وأهم ثورة كانت فى تاريخهم ثورتهم على يزيد بن معاوية ، وأشهر مواقفهم موقفهم الرائع فى يوم الحرة . فلقد أختاروا الموت على عيش الذل والهوان تحت ظل راية يزيد .

وقد سبق الكلام عند ذكر معاوية رضى الله عنه على مالقى من قوة شكيمتهم فى الامتناع عن قراره على ما يريده من ترشيح ابنه يزيد لولاية العهد وعلى ما عمله معاوية من الدهاء والحنكة حتى أرضخ جل الناس لمشيئته ثم لما مات معاوية وآل أمر الخلافة الاسلامية إلى يزيد ما لبث أن رأى نفسه

---

(٢) استشهد حنظلة بأحد فغسلته الملائكة فكانوا يلقبون أبناءه بأبناء الغسيل .

السيد المطاع والحاكم المطلق حتى استخف بأمر المسلمين وتهاون بأمور الدين وتعلق بأذيال الغانيات وانتهك الحرمات واستأثر بالفيء وبعثر أموال الدولة على ملاذّه وشهواته وعبث بالأمة التى صير الله إليه أمرها ورفعه عليها وحكمه فيها . ونحّى من حوله ذوى الفضل والحجى وقرب إليه كل مختلس أفاك ميال مع الهواء . فتحركت حفيظة الناس عليه وجاء مقتل الحسين بن على رضى الله عنهما على تلك الصورة التى أسلفنا فكان من أكبر البواعث فى تهييج الخواطر وثورة النفوس على تحطيم قيود الحكم اليزيدى .

وكانت المدينة المنورة فى طليعة الناقمين فقد رأى المدنيون وكلهم من أبناء المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ أن السكوت على أعمال يزيد رضاء منهم بالذل وإقرار على أنفسهم بالعبودية وتشجيع لولاة الجور على الاندفاع وراء أهوائهم وما يزينه لهم الشيطان من أعمالهم .

وما كان لو كان آباؤهم فى الحياة أن يرضوا بعمل يزيد أو يقروه عليه وكيف وهم بالأمس كانوا يبذلون دماءهم رخيصة فى استخلاص العالم من كسروية كسرى وقيصرية قيصر لينسموهم نسيم العدل والحرية تحت راية الملة الحنفية السمحة . وإن قوماً لا يرضى آباؤهم لغيرهم حياة الخسف لقمينون بألا يرضوها لأنفسهم ، فأجمعوا أمرهم على الثورة ضد يزيد تحت زعامة عبد الله بن الغسيل فأدى واجبه كأحسن مايؤدى قائد ثورة واجبه فيها دون أن يتطرق إلى نفسه وهن أو يتسرب إلى قلبه جبن . ولنعتمد على ذكر وصف تلك الثورة وموقف هذا الزعيم الثائر فيها على ما كتبه صاحب الطبقات فى صفحة ٣٧ من الجزء الخامس .

قام عبد الله بن حنظلة فى الناس فقال ياقوم اتقوا الله وحده لا شريك له فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ء إن رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً ، فتواثب الناس يبايعون على الموت . فلما دنا أهل الشام من وادى القرى صلى عبد الله بالناس الظهر ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنما خرجتم غضباً لدينكم فأبلوا الله بلاء حسنا يوجب لكم به مغفرته ويحل عليكم رضوانه قد خبرنى من نزل القوم مع القوم السويداء وقد نزل القوم ذا خشب ومعهم مروان بن الحكم والله إن شاء محينه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله ﷺ . فتصايح الناس وجعلوا ينالون من مروان ويقولون الوزغ ابن الوزغ وجعل ابن حنظلة يهدئهم ويقول إن الشتم ليس بشيء ولكن اصدقوهم اللقاء والله ما صدق قوم قط إلا حازوا النصر بقدرة

الله ، ثم رفع يديه إلى السماء واستقبل القبلة وقال اللهم إنا بك واثقون ، بك آمنا وعليك توكلنا وإليك ألجأنا ظهورنا ، ثم نزل ، وصبح القوم المدينة فقاتل أهل المدينة قتالا شديداً حتى كثرهم أهل الشام ودخلت المدينة من النواحى كلها فلبس عبد الله درعين وجعل يحض أصحابه على القتال فجعلوا يقاتلون وقتل الناس فلا ترى إلا راية عبد الله بن حنظلة ممسكا بها مع عصابة من أصحابه وحانت الظهر فقال لمولى له احم ظهرى حتى أصلى فصلى الظهر أربعاً متمكنا فلما قضى صلاته قال له مولاه والله يا أبا عبد الرحمن ما بقى أحد فعلام نقيم ، ولواؤه قائم ما حوله خمسة فقال ويحك إنما خرجنا على أن نموت ثم انصرف من الصلاة وبه جراحات كثيرة فتقلد السيف ونزع الدرع ولبس ساعدين من ديباج ثم حث الناس على القتال وأهل المدينة كالأنعام الشرد وأهل الشام يقتلونهم فى كل وجه فلما هزم الناس طرح الدرع وما عليه من سلاح وجعل يقاتلهم حاسراً حتى قتلوه . وانكشف الناس . رحمه الله (1) .



(1) وكان عمره لما قتل ستين سنة إلا خمسة أشهر فقد ولد عبد الله بن حنظلة بعد الهجرة بثلاث سنين وخمسة أشهر سنة ٣ هـ وعلقت به أمه ليلة غزوة أحد فإن أباه حنظلة لما أراد الخروج إلى أحد وقع على أمه جميلة بنت عبد الله بن سلول فعلقت به واستشهد حنظلة فى الوقعة وكان عبد الله صالحا ورعا يصوم الدهر وما رئى رافعا رأسه إلى السماء إخباتا ولما مر مسرف قائد جيش يزيد على القتلى كان معه مروان فرأيا عبد الله بن حنظلة وهو ماد أصبعه السبابة فقال مروان أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حيا وقال عبد الله بن أبى سفيان سمعت أبى يقول رأيت عبد الله بن حنظلة بعد مقتله فى النوم فى أحسن صورة معه لواؤه فقلت أبا عبد الرحمن أما قتلت قال بلى ولقيت ربى فأدخلنى الجنة فأنا أسرح فى ثمارها حيث شئت فقلت أصحابك ما صنع بهم قال هم معى حول لوائى هذا الذى ترى لم يحل عقده حتى الساعة قال ففزعت من النوم فرأيت أنه خير رأيته . نقلا عن طبقات ابن سعد .

« مـروان بن الحـكم »

وهذا رجل من رجالات الحجاز نفض عن نفسه الخمول ووثب وثبة قوية سنمته ذروة الخلافة وأسعفه اضطراب الأمور حينذاك فاستاق الملك إليه سوقاً ولا ننسى أن الحروب الداخلية التى حدثت بين على وعائشة أم المؤمنين ثم بين على ومعاوية ثم ما حصل من الاحتكاك بين الحجاز والشام فى عهد يزيد بن معاوية قد أزال عن طريقه كثيرا من العقبات ومهد له الطريق لأن يورث أبناءه ملكه من بعده . وبذلك سطر اسمه مع العظماء الذين استطاعوا أن يفيدوا من الأحداث بعد ذلك ولا يستطيع الانسان أن يمر به دون أن يعطيه ما يجب له من مراسم الاكبار إن طوعاً أو كرهاً ، وحق لمروان أن يكون فى مصاف رجالاتنا الذين لا يمكن لأبناء الحجاز إلا أن ينظموه فى طراز عظمائهم الذين تركوا لهم فى الحياة دوياً يتردد أصداؤه على الأجيال المتعاقبة . مهما كانت قيمة ذلك الدوى .

* * * *

كان مروان بن الحكم لا يزيد عن كونه رجلاً عادياً إذ ليس له من الأعمال ما يلفت الأنظار إليه سوى انتمائه إلى بيت من البيوتات الرفيعة فى قريش وحسب .

فلما آل أمر الخلافة الاسلامية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ـــ وكان مروان هذا يمت إليه بصلة القرابة ـــ التحق ببلاطه وكان لديه من حسن الاستعداد ما يؤهله لأن ينال من عثمان وظيفة لها خطرها فى تصريف شؤون الدولة ، فكانت وظيفته عنده أشبه ما تكون بوظيفة رئيس الديوان الملكى لوقتنا الحاضر ، وأظهرت هذه الوظيفة التى تقلدها مروان مواهبه وملكاته الكامنة فيه وأسفرت عن خصائصه وأخلاقه ، وبدأنا نرى من تصرفاته وأعماله ما يدلنا على أن مروان كان رجلاً جريئاً كثير المطامع ولوعاً بالشهرة لا يبالى فى سبيل غاياته ماذا يكتسح للوصول إليها وأقدم

على أمور لا يستطيع الاقدام عليها غيره ، فقد لعبت أصابعه الخفية فى ماجريات الأمور السياسية لعباً أحدث تأثيراً بالغاً فى النفوس ؛ ولا يهمنا إن كان ذلك التأثير سيئاً أو حسناً فلسنا الآن بصدد نقده ومحاسباته بل المهم أن نرى مروان يقوم بتمثيل أدوار رهيبة تثاقل عن حمل أعبائها الضمائر ولكن ضمير مروان احتملها ، وإلى هذه الأعمال يعزو المؤرخون أسباب الضجة التى اكتنفت عرش الخلافة العثمانية وعلى كل فإن مروان قد ظل محتفظا بوظيفته إلى أن أدت النتيجة إلى قتل الخليفة الصالح ولم يعتوره وهن ولم تركن نفسه إلى الوجوم والانكماش لمقتل عثمان ، بل نراه يقوم بواجب الدفاع عنه ، فقد برز من الدار يطلب قتال المحاصرين ، فضرب ضربة بالسيف خرَّ منها على وجهه ، ولولا أن أمه من الرضاع قالت لضاربه حينما أراد أن يحتز رأسه إن كنت تريد قتله فقد قتلته فما تصنع بلحمه أن تبضعه ، فاستحيا منها ، لطويت صحيفته ولم يطالعنا من أعماله على غير ذلك .

ولكن الأقدار أرادت أن تحتفظ بحياته لتجلسه على عرش الملك فى يوم ما وترفعه على الناس حتى لا يُرى فوقه أحد ، ولذلك أنجته من موت كان منه مروان على قاب قوسين أو أدنى ، ثم يعاود مروان حياة المناضلة والكفاح مرة أخرى بعد شفائه من جراحانه ويخرج إلى البصرة فيمن خرج إليها للمطالبة بدم عثمان وقاتل قتالا شديداً وكادت الجراحات التى أصابته فى وقعة الجمل تودى بحياته ، ولكنه أوتى من المناعة ما جعل جسمه يتغلب على الجراحات إلى أن دملها وقام معافى سليماً وأفلت من الموت للمرة الثانية ، ورأى مروان الجند الذى كان يحارب فيه قد انهزم فتوارى حتى أخذ له الأمان من على بن أبى طالب كرم الله وجهه فاضطر لمبايعته فبايعه وقفل راجعاً إلى المدينة وقبع بداره فيها نافضا يديه من الأمر الذى كان يحوكه لنفسه وغلب عليه واستقر فى روعه أنه ما باء من جهاده ومكافحته للأحداث التى اعتورته إلا بلواعجه وزفراته التى كانت تتردد أصداؤها بين حوائط منزله وغفل عما كانت تمهده لمستقبل حياته الأقدار .

إن الأعمال التى باشرها مروان ؛ والأدوار التى مثلها ، والأمور التى عالجها ، وما قام به من مختلف التصرفات لا يمكن أن يغفلها الناس . فقد تركت له شخصية استحوذت على جزء غير يسير من رؤوس بنى أبيه من الأمويين ومن يليهم من رؤوس الأجناد والأتباع . فلما تم اقتناص الأمر لمعاوية واعتلى منصة الحكم لم يغفل عن مكانة ابن عمه مروان فولاه المدينة ثم عزله ثم أعاده ثم عزله مرة أخرى . وكان مروان فى كل ذلك يرى أن الأمر قد أخطأه وأن الخلافة قد فرت من يديه . فليستسلم إذاً لكل ما تأتى به الأيام غير أن صدره الملىء بالمطامع يجعله لا يركن إلى الأمراء وبذر نفسه لا تستسيغ طعم المحايدة . لذلك نراه حينما ثار أهل المدينة على يزيد وجلوا الأمويين عنها وكان

من بينهم مروان بن الحكم عاد مع الجيش الذي بعثه يزيد لمحاربتهم واخضاعهم وبذل كل ما يستطيع بذله فى سبيل نصرة الجيش ــ رغم ما استوثق أهل المدينة لأنفسهم منه[١] ــ حتى تم لهم الفوز . وكتب قائد الحملة « مسلم بن عقبة » إلى يزيد كتابا يطرى فيه مروان على ما أبداه من المعونة والمناصحة فاستقدمه يزيد إليه وقربه وأدناه وأقام مروان بالشام إلى أن مات يزيد وعقبته وفاة ابنه معاوية دون أن يترك من يصلح لأن يخلفه على كرسى الحكم .

وهنا نرى الأحلام والأمانى نجمت فى صدر مروان وعادت الأفكار التى طالما ساورته بشأن الأمر الذى منى نفسه به تعاوده مرة أخرى ، يدلنا على ذلك كلمة قذف بها من فيه يجس بها نبض الناس فإنه بعد دفن معاوية بن يزيد وقف على قبره وقال « أتدرون من دفنتم » قالوا معاوية بن يزيد ــ وما كان يريد مروان أن يجاب بمثل هذا الجواب ــ ولكن هكذا أجيب فما وسعه إلا أن قال « هذا أبو ليلى » فقال أزنم الفزارى :

إنى أرى فتناً تغلى مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

فعلم مروان أن هوى الناس لم يكن فيه ، ونظر إلى الشام فوجدها تغلى غليان المرجل كما قال ازنم ، فقد ذهبت أهواء الناس كل مذهب واحتشدت القوات لمغالبة بعضها بعضاً . فالضاحك[٢] يدعو لابن الزبير وحسان بن مالك يدعو لابن أخته خالد بن معاوية وهذا يتمناها لنفسه وذاك يرجوها لغيره ، ولم يكن فى القوم من يبغيها لمروان أو يبغى مروان لها ، واغتم مروان لمجابهة هذه الحقيقة المرة . وماذا يستطيع أن يصنع فإنه لا قِبَل له فى مقابلة هذه القوات المحتشدة ولا حيلة لديه أمام هذه الأهواء المختلفة فالدعوة لنفسه بينها ــ وليس لديه من يؤيده ــ غرور بنفسه ومجلبة إلى السخرية والاستهزاء به فسقط فى يديه ولم ير أمامه إلا الخضوع لابن الزبير ــ أحب أم كره ــ وأخذ الأمان له ولبنى أمية منــه .

وتأبى الأقدار إلا أن تسوق إليه الملك سوقاً كما قدمنا ــ رغم قنوطه ويأسه ــ فإنه لما وصل إلى أذرعات فى سفره إلى مكة لقيه بها عبد الله بن زياد وعمرو بن سعيد[٣] فقال عبد الله لمروان أين

---

(١) فى طبقات بن سعد : أن أهل المدينه لما أجلوا عنها الأمويين أخذوا منه المواثيق والعهود أن لايرجعوا إليهم وإن قدروا أن يردوا جيش يزيد عنهم فليفعلوا فأعطوهم ذلك راجع صفحة (٣٨ ج ٥) .

(٢) هو الضحاك بن قيس الفهرى وكان زعيما خطيرا يطيعه كثير من الناس .

(٣) عبد الله بن زياد بن أبيه وعمرو بن سعيد أبى أحيحة بن العاص بن عبد الشمس وكنيته أبو أمية وكان مطاعاً فى اليمانية .

تريد ؟ فأخبره قال : سبحان الله أرضيت لنفسك بهذا ؟ أتبايع لأبى حبيب ؟ — يعنى ابن الزبير — وأنت سيد بنى عبد مناف والله لأنت أولى بها — يعنى الخلافة — منه . فتهللت أسارير وجه مروان لهذا الاطراء وبرقت له بارقة الأمل من كلام عبد الله بن زياد فهو ليس بالرجل الذى يلقى القول على عواهنه ، ولكنه ممن يعززون الأقوال بالأفعال فاتجه إليه بكليته وانتزع منه الرأى انتزاعاً ، فقال عبد الله : الرأى أن ترجع وتدعو إلى نفسك وأنا أكفيك قريشاً ومواليها ولا يخالفنك منهم أحد ؛ فقال عمرو بن سعيد صدق عبيد الله : إنك لجذم قريش وشيخها وسيدها وما ينظر الناس إلّا إلى هذا الغلام خالد بن يزيد فتزوّج أمه فيكون فى حجرك وادع إلى نفسك وأنا أكفيك اليمانية فإنهم لا يخالفونى على أن تبايع لى من بعدك ، قال : نعم ، فأبرموا أمرهم على ذلك وتعاقدوا فيما بينهم على بذل الجهود فى تحقيقه ، وذهب ثلاثتهم كلٌ يمنى نفسه بالمجد والعظمة وكلٌ له فيها أمل يسعى لنواله متخذاً من صاحبه ذريعة يتوصل بها إلى ما يريد .

فابن زياد لا يهمه من الأمر إلا أن يرجع إلى إمارة العراق التى طرد عنها ، فنفسه تكاد تطير شعاعا عليها ولا يرجعه إليها إلا عودة الحكم إلى أحد بني أمية ، وليس فى بنى أمية من هو أحق من مروان بن الحكم ؛ ومروان يمنى نفسه بالملك فليكن إذاً هو سيد بنى عبد مناف ، وليكن هو أوْلَى بالمُلك من أبى حبيب ، فإذا تمّ الأمر على هذه الصورة التى أريدها عدت إلى إمرة العراق وحفظ مروان يدى عنده وكنت أحب الناس إليه وأقربهم منه ، بل ربما أشركنى فى الأمر كما كان أبى زياد شريك معاوية بن أبى سفيان فى أمره من قبل .

أما عمرو بن سعيد فهو سيد مطاع ، وزعيم خطير ، وقائد عظيم ، لا يرضى لنفسه بما دون الخلافة ، ولكنه ليس هو بالرجل الذى يستجيب له الناس إذا دعاهم لبيعته . وليس أمامه حيال هذه الفتن التى تغلى مراجلها إلا أن يدخل فيما دخل فيه قرينه الضحاك فيبايع لابن الزبير ، وابن الزبير ليس موقفه موقف الرجل الذي يساوم في المبايعة بشيء من الأمر لأن أمر الخلافة قد استقام له فالدخول في بيعته لا يزيد في قدره شيئا بل ربما اهتزل ابن الزبير من مكانته وانتقص من زعامته ووضع من كرامته للعداوة التى بين بني أمية وابن الزبير فليس إلا مروان فلأتخذن منه متكئا أصل به إلى أمنيتى بعهد منه ، ولتكن مساومته على ذلك من الآن فإذا رضي مروان بأن يعهد إليَّ بالأمر من بعده فليكن هو جذم قريش وشيخها وسيدها . أما مروان فهو في أمس الحاجة الى مثل هذين الرجلين الكبيرين ، وطالما تطلعت نفسه لأن يكون له مثلهما فيأتيان بالجنود يقاتل بها الناس في سبيل المُلك ، وهاهما ولله الحمد قد حضرا وبذلا لى المعونة ، فلأمنيهما بكل ما يشبع نهمهما ، ولأعدهما

بالوفاء بكل ما طلبا حتى إذا عقد لى الأمر وتمّ لى ما أريد فهناك يكون المخرج . وهكذا استغل كل منهم طمع الآخر وسخره لأغراضه وآن لمروان أن يتمثل بقول ازنم الفزازى :

أنى أرى فتناً تغلى مراجلها   والحكم بعد أبى ليلى لمن غلبا

وجاء دور العمل وكان أهم ما يصادف هؤلاء الثلاثة النفر في طريقهم الضحاك ، وهو من علمنا في خطورته وهو مقيم بدمشق قاعدة الشام ، وهواه مع ابن الزبير وحسان بن مالك بالأردن وهواه مع ابن أخته خالد بن معاوية بن يزيد ، فقال ابن زياد أما الضحاك فأنا أكفيكموه ، وتعهد عمرو بن سعيد بإحضار الجند إذا اقتضى الأمر لمحاربته .

وذهب مروان إلى الجابية والناس فيها مختلفون كل له هوى يختلف عن هوى الآخر ، واغتنم مروان فرصة اختلاف الأهواء وأسرع إلى أم خالد فتزوجها .

وفي هذه الأثناء كان ابن زياد ينصب حبائله في دمشق لايقاع الضحاك فيها وقد وجد نفسه أمام من هو أعظم منه قوة وأكثر صولة ، حوله العدة والعدد ، فلا سبيل إليه إلا بالحيلة والخديعة ، وكان ابن زياد رجلا داهية يزور الضحاك في كل يوم دون أن يخوض معه في الأمور السياسية حتى إذا عرف منه أنه ألفه ، قال له : يا أبا أنيس العجب لك وأنت شيخ قريش تدعو لابن الزبير وتدع نفسك وأنت أرضى عند الناس منه ، فادع لنفسك — وكأن الضحاك كان ينتظر من يشجعه على ذلك يترقب أن يستشير ابن زياد في الأمر ففاجأه عبيد الله به ، فاهتبلها فرصة فإن موافقة ابن زياد على إسناد الأمر إليه فرصة لا يمكن إفلاتها . وعلى كل فإن النفس الانسانية مجبولة على حب ذاتها ، ومن كان مثل الضحاك فى خطورة شأنه ونفوذ كلمته لايستكثر المُلك عليه ولا يرى أنه بعيد عنه فإن تحت يديه الألوف المؤلفة من مطيعيه والنازلين على رأيه ، فما هو إلا أن يدعو الناس لبيعته فيسرعون إليها رغبة أو رهبة ومن شاكس أو عاند فليتحكم فيه السيف . هذا ما كان يختلج فى صدر أبى أنيس بدليل أنه لما سمع من أبن زياد ما سمع وافق ذلك هوى كان كامناً فيه . ودعا الضحاك الناس إلى نفسه وعجب الناس من هذه الدعوة التى لم يكونوا يتوقعون من الضحاك أن يفاجئهم بها دون أن يمهد لها ودخل نفوسهم فيه أشياء ، فبالأمس دعانا لبيعة ابن الزبير فبايعناه وأعطيناه مواثيقنا وعهودنا عليها ولم نر من ابن الزبير حدثاً يحملنا على النكوص عنه والنكوث به وماذا يمنعنا من مصارحة

الضحاك بذلك وأخبره باختلاف الناس عليه فخشى مغبة الأمر وعاد للدعوة إلى ابن الزبير ولكن هذا التردد الذى بدا من الضحاك قد عمل عمله فى الصدور فأفسد الناس عليه وكثر اللغط حوله ، واغتبط ابن زياد بهذه النتيجة فليختلق منها سبباً يتوصل به لزحزحة الضحاك من دمشق فذهب إليه وقال له من أراد ما نريد لم ينزل المدائن والحصون ، ومكر به وقال له : الرأى أن تخرج من دمشق وتجمع الخيل وتضم إليك الأجناد وتدعو الناس إلى ما تشاء فمن خالف كنت على أهبة القتال فما أرى مثل هذا ينال إلا بالقوة والقهر ، فخرج الضحاك ونزل بمرج راهط . وخلت دمشق لعبيد الله بن زياد فأسرع بالدعوة لمروان بن الحكم ، وساعده فى نجاحه حب الدمشقيين لبنى أمية وميلهم لهم فبايعوه ، وكتب بذلك إلى مروان وقال له : ادع من حولك لبيعتك فدعا مروان بنى أمية فبايعوه واتبعهم الناس وامتنع حسان بن مالك من البيعة لمروان ، وبعد محاولات بايع حسان بن مالك على أن تكون إمرة حمص لخالد وألّا يعهد بالأمر من بعده إلا له فقبل مروان .

أحس الضحاك بما كان من مروان واستبانت له مكيدة ابن زياد وعلم أن ما قيل له إن هو إلا لأمر مبرم وتدبير محكم فآلى على نفسه لينتقمن من ابن زياد وأبى الدخول فيما دخل فيه القوم وأعلنهم الحرب ، فخرج عبيد الله بأهل دمشق ، وسار مروان بمن معه ، ووافاهم عمرو بن سعيد بقبيله ، والتقوا عامتهم بالمرج حيث ابن قيس بجموعه فى انتظارهم واقتتلوا عشرين يوماً وكانت النتيجة أن قتل أبو أنيس وانهزمت جموعه ، ودخل مروان دمشق فائزاً منتصراً لا يزاحمه على عرشها مزاحم ، ولم يبق أمامه إلا أن يعمل على التخلص ممن وعدهم بولاية العهد ليمكن لأبنائه في الأمر من بعده ، فمكر بعمرو بن سعيد ونقض ما اتفقا عليه ؛ واستخف بشأن خالد وعهد بالأمر لابنيه عبد الملك ، وعبد العزيز من بعده ، ولكن استخفافه بخالد كان سببا لخاتمة حياته . يقال ان خالداً دخل عليه — وكان يجلسه على سريره بجانبه — فلما أراد الجلوس في المكان الذي تعود أن يجلس فيه انتهره مروان وقال له : تنح يا ابن رطبة الاست والله ما وجدت عقلا . فخرج خالد مغضباً ، ودخل على أمه فأخبرها بما قال مروان فأمرته بكتمانه حتى آنست من مروان غرة ، وضعت على فمه وسادة وغمته بها ، وأمرت جواريها أن يجلسن عليه حتى مات وانتقمت بنت مالك لنفسها ولابنها منه . وكانت نهاية حياته على يديها بهذه الصورة ولكن بعد أن ضمن لأبنائه الحكم من بعده ومكن لهم فيه وكانت وفاته سنة ٦٥ هجرية .

« محمد بن علي بن أبي طالب »

المشهور بابن الحنفية

بينما نرى مما تقدم ما تنطوى عليه نفسية مروان بن الحكم من الطمع والحرص اللذين يدفعانه إلى السعى بكل وسيلة ممكنة لنوال الملك وبذل كل ما يستطيع بذله في سبيل جلوسه على كرسى الحكم نرى محمد بن الحنفية يطالعنا بنفسية أسمى وأكمل فلقد كانت نفسيته تختلف تمام الاختلاف عن نفسية مروان ، ونرى في آن واحد وفي ظرف واحد كلا الرجلين المتعاصرين له رأى في الحياة يختلف عن رأى الآخر فيها اختلافا بينا ولكل منهما طريق لا تتفق وطريق الثانى مع أن كلا منهما تكاد تكون ظروفه متشابهة فيما يحيط بهما من المؤثرات إذ رأيُ الناس في ترشيحهما للخلافة متماثل على أن لابن الحنفية ميزة لم تكن لمروان مثلها ولا ما يقاربها فلابن الحنفية سلطة روحية على الناس تدفعهم على تقديمه على مروان وله شيعة تجله وتقدسه ؛ وكان لهذه الشيعة قوة لا يستهان بها فلو خاض ابن الحنفية بشيعته غمار الفتن التى كانت تغلى مراجلها في العالم الاسلامى حينذاك واغتنم فرصة اختلاف الأهواء على من يلى الحكم بعد أبى ليلى لغلب وظفر بالسلطان ولتسنم ذروة لم يكن مروان ليتسنمها لولا تنحيه عنها .

وهذا التنحى من محمد بن على وزهده في الملك لم ينتقصا من مكانه شيئا بل جعلا لشخصيته من الهيبة والاحترام ما تتضاءل أمامه عظمة مروان بالرغم مما يحفها من أبهة الحكم ومظاهر الاستعلاء على الناس فلقد كانت الوفود تترى جموعها من الأنحاء على باب محمد ترجوه ـــ برغبة ملحة ـــ أن يقبل بيعتهم ويؤمه الناس من كل مكان يدعونه لأن يتولى أمرهم . ودافعهم في ذلك عقيدة امتلكت عليهم جميع مشاعرهم ، فهم يرون في طاعته قربة يتقربون بها إلى بارئهم وفي ارتقاه كرسى الخلافة حقا أعيد إلى نصابه وليس في نظرهم من هو أولى بالخلافة منه .

ويرى ابن الحنفية هذه الرغبة من شيعته فيه وهذا الاندفاع منهم إليه ، يحفون به ويودون أن لو يشير إليهم بمحاربة من أراد من سكان الأرض فيبذلون أرواحهم رخيصة لتحقيق رغائبه . يرى كل

ذلك من أشياعه ومحبيه مع ما هو فيه من اضطهاد مروان له إذا هو حل بالشام وتعذيب ابن الزبير له ولأسرته إذا هو نزل بالحجاز . فيمتثل لتصاريف القضاء ويصبر على محن الدهر ويرفض ما يعرضه عليه أتباعه من الوثوب والدفاع ، ويختار ما هو فيه من البلاء حباً في توحيد الكلمة واجتماع الأمة ورغبة منه في حقن الدماء وميلاً للموادعة والمسالمة واستنكافاً للشقاق والمشاحنة بين أبناء الأمة الواحدة وعزوفا بنفسه عن احتمال تبعات الدماء التى يراد سفكها في سبيل الأغراض الذاتية والمصالح الشخصية والنعرات العصبية التى عمل على محاربتها وإبادة آثارها من النفوس أوثق الناس قرابة به « محمد بن عبد الله ﷺ » والتى لولا انتسابه إليه ما عظمه الناس . وماذا يضر ابن الحنفية أو ماذا ينتقص من كرامته أو ماذا يخل بمكانته إذا أجمعت الأمة على بيعة شخص غيره كائناً من كان ؟ ودخل هو فيما يدخل فيه المسلمون كفرد من عامتهم ؟ إن ذلك خير له من أن يسفك محجناً من دم في سبيل أهوائه ومطامعه وما هى إذاً تلك الميزة التى تميزه عن غيره إن لم يكن كال الانسانية أوفر فيه من سواه ؟

وما هو الفارق بينه وهو سليل أعظم عظيم في بنى هاشم بعد محمد ! وهو المسمى بالمهدى وبين مروان الذي يقال له الوزغ ابن الوزغ إذا هو عمل عمله ؟ وخاض بأتباعه غمار عجاجات لولا الأطماع ما ثارت بين أناس يدينون بدين واحد ويتوجهون إلى قبلة واحدة في كل يوم خمس مرات .

إن محمد بن الحنفية يجب أن يسمو بنفسه ويعلو على الناس بروحه وعقله لا بسيفه وجنده كما يفعل مروان وابن الزبير ، ولتكن صحيفته أنقى من صحيفتيهما حتى إذا نشرت لتتلى وجدت بيضاء نقية لم تتلوث أطرافها بقطرة من دم على كثرة ما سفك حولها من الدماء في ذلك العصر . واستطاع ابن الحنفية أن يحتفظ بتلك الصفيحة الناصعة التى اختارها لنفسه فكانت كما أراد . وبز بجلال عقله وسمو نفسه ومتانة خلقه من عداه من البارزين في زمانه . وهل من سمو يضاهى سمو أبى القاسم — كنية ابن الحنفية — وهل من ترفع عن خدع الحياة أبلغ من هذا الترفع ؟ واستمع لمحمد وهو يخاطب الجموع المطيعة له المذعنة لمشيئته ليفضها من حوله .

« نحن بحيث ترون محتسبون ، وما أحب أن لى سلطان الدنيا بقتل مؤمن بغير الحق ولوددت أن الله انتصر لنا بمن شاء من خلقه فاحذروا الكذابين وانظروا لأنفسكم ودينكم » .

ويقول وردان : كنت فى العصابة الذين انتدبوا لمحمد بن على ، وكان ابن الزبير منعه أن يدخل مكة حتى يبايعه فأبى أن يبايعه قال فانتهينا إليه فأراد أهل الشام فمنعه عبد الملك أن يدخلها

حتى يبايعه فأبى عليه ، قال : فسرنا معه ما سرنا ولو أمرنا بقتال لقاتلنا معه فجمعنا يوماً فقسم فينا شيئاً وهو يسير . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « الحقوا برجالكم واتقوا الله وعليكم بما تعرفون ودعوا ما تنكرون ، وعليكم بخاصة أنفسكم ودعوا أمر العامة واستقروا على أمرنا كما استقرت السماء والأرض ، فإن أمرنا إذا جاء كان كالشمس الضاحية » فانصرف الناس . نزولا على رغبته وبقى معه تسعمائة نفر .

أرأيت كيف لم يذهب بحلمه ووقاره الطيش ولا النزاع ولم تغره كثرة الأتباع للانتقام من مضطهديه . وآثر أن يكون فردا من عامة المسلمين على أن يكون له ملك الأرض .

ولما تم تغلب عبد الملك بن مروان على منافسيه في الأمر وقضى على دولة ابن الزبير وأجمعت الأمة على بيعته بايعه دون تردد ولم يسفك قطرة دم يسأل بتبعتها أمام ربه حتى وافاه الأجل المحتوم رحمه الله .



« عبد الملك بن مروان »

يصح أن نقول إن عبد الملك بن مروان آخر ملك حجازي أسند إليه أمر الخلافة الاسلامية فحمل الناس على السيف حتى جعلهم يجمعون عليه ويلقون مقاليد أمورهم بين يديه .

عهد إليه أبوه مروان بن الحكم بالأمر من بعده . وكان عبد الملك شاباً أديباً ذكياً فاضلا له إلمام واسع بعلوم الشريعة والحديث والفقه واللغة . قال الشعبى : « ماذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ولا شعراً إلا زادنى فيه[1] » وكان معدوداً من أهل الفطنة والحجا مع تقوى وورع يشهد له بهما الناس حتى كانوا يلقبونه « بحمامة المسجد » لكثرة ملازمته له وكان أقرأ الناس للقرآن .

ولكننا لا نلبث أن نرى تحولا كبيراً طرأ عليه في أخلاقه وعاداته بعد اعتلائه العرش . مما يجعلنا نؤمن بأن كراسي الحكم ومقاليد السلطة ذات أثر فعال في قلب الأخلاق والعادات وتكوينها تكويناً يتلاءم مع الأعمال الواجبة على طالب الحكم لتزكية نفسه على القوة التى يختارها كي يستمد نفوذه منها في نشر سلطانه ودوام ملكه وتختلف القوى بحسب اختلاف البيئات ومقتضيات الظروف .

وأول انقلاب يطالعنا به عبد الملك في أخلاقه وطباعه ـــ حينما آل إليه الأمر ـــ وضْعُ المصحف من يديه وقوله « هذا فراق بيني وبينك » ثم خطبته الرهيبة التى افتتح بها عهده « أيها الناس إننى لست بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ولا بالخليفة المأفون ولكن من قال برأسه كذا قلت له بسيفي كذا .

أى رجل هذا الذي ينفث من فيه الموت الزؤام ؟ ومن هذا الذي تحمل نبرات صوته الارهاب والوعيد فتوصلها إلى الأذهان وتنفذ منها إلى القلوب فتصطك لها الاسنان ؟ أهذا هو عبد الملك الذى

(١) كتاب الدولة الأموية لزكريا الصولى « ٢١١ » .

نعهده ونعرفه أهذا هو الرجل الوديع الملقب بحمامة المسجد ؟

.... لم يعد الآن حمامة المسجد ولكنه أسد الغوطة ، وجبار دمشق فالويل لمن قال برأسه « كذا » محدثاً نفسه بمعارضته بعد اليوم .

* * * *

ولى عبد الملك الأمر والمتطلّعون إليه كُثر والمنافسون له من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

١ — فعبد الله بن الزبير يدعى الخلافة بالحجاز ولا يرى أحداً أحق بها منه . لذلك فهو يسعى مجداً للاستيلاء على الشام .

٢ — وأخوه مصعب بن الزبير عامله على البصرة مجدٌّ في استصفاء العراق لأخيه .

٣ — والمختار الثقفي بالكوفة يتطلع لاقتناص الأمر بكل وسيلة .

٤ — والخوارج بفارس يقلقون بحملاتهم المتوالية نفوس الخلفاء أيّاً كانوا .

٥ — وعمرو بن سعيد وخالد بن معاوية بن يزيد بدمشق يقضون مضجعه .

٦ — والهاشميون وأشياعهم منبثون هنا وهناك متبرين بالحكم الأموى ساخطين عليه .

٧ — وعبد العزيز بن مروان يترقب وفاة أخيه عبد الملك ليثب إلى العرش تنفيذا لوصية أبيه .

ولم يخف على عبد الملك كل ذلك مما يحيط به . وهو يريد رغم كل هذا استصفاء الملك لنفسه وتوريثه لأبنائه من بعده . فكيف يصنع ؟

وما كان عبد الملك في ذلك الوقت شيخا ولا كهلا حتى يميل إلى المراوغة والمداهنة في أموره . ولكنه كان شاباً قوياً تدفعه فورة الدم الفتى الذي يجرى في شرايينه إلى الشدة والبطش والسرعة ، والعجلة إلى تحكيم السيف بينه وبين خصومه فإما الفوز العاجل أو الموت المستعجل . ولا نقول إن عبد الملك لم يجنح إلى التفكير العميق في أعماله بل ربما فكر وأطال النفكير . فلا يبعد أنه رأى أن الضعف والتردد أوديا بحياة المتذرعين بهما من ذوى المطامع أمثاله . ثم ماذا تريد أن ينتهي إليه تفكير شاب مثل عبد الملك المعتد بنفسه غير البطش وإصلات السيف على الرقاب دون هوادة . كما لا يبعد أيضا أن نفسه — المتعطشة للعظمة والاعتلاء على الناس — أكدت له أن هذه الخطة —

خطة البطش والشدة ــ أنجع الخطط لمعالجة شؤونه ليصفو له الملك ويخلص منه إلى أبنائه .

وقد تكون خطته أقرب إلى الصواب في أفكار أبناء ذلك الزمان من غيرها . فإن الحوادث المفاجئة في ميدان السياسة كانت فيه أشبه ما تكون بالأعاصير العاتية لا تلبث أن تعصف بطلاب الحكم وعشاق الخلافة وتفتك بهم فتكا ذريعاً فلا يكاد يثبت في مهابها ويتجنب نكباتها إلا كل من كان قوياً جباراً . فليعمد إذاً إلى القوة وليخضع لمقتضياتها مهما كلفه ذلك وليتعجل تنفيذ أوامرها وليسحق كل من يقف حجر عثرة في سبيله كائنا من كان .

لذلك جاءت خطبته إيذانا للناس بالسياسة التى انتوى بموجبها وتلاعبت أبالسة الجبروت في مخيلته ثم تمثلت له في أشخاص الحجاج الثقفي وأضرابه من ذوى الصرامة والقسوة فأنس إليهم واستعان بهم فكانوا من خير أعوانه ومن أخلص المخلصين فلم يتوانوا في تنفيذ أوامره الرهيبة وسفك دماء الناس لأوهى الأسباب ابتغاء مرضاته .

* * * *

قضت سياسة عبد الملك عليه ألّا ينظر إلى الأمور إلا بمنظار واحد هو منظار الاستئثار بالملك له وله وحده فقط ، فقرر حسب مقتضياتها الصارمة القاسية .

١ ــ الفتك بأخيه عبد العزيز . فساعدته الأقدار وامتدت إلى أخيه فقضت عليه وأراحته منه دون أن تلوث يده بدم أخيه فحمد عبد الملك للقدر صنيعه .

٢ ــ وقرر ذبح ابن عمه عمرو بن سعيد وذبحه كما تذبح النعجة .

٣ ــ محاربة صديقه ورفيق صباه مصعب بن الزبير وقتله وقد تم له ذلك .

٤ ــ القضاء على حكومة عبد الله بن الزبير فجهز إليها جيشا بقيادة الحجاج الثقفي فقتله هذا وصلبه وقضى على دولته .

٥ ــ قذف الخوارج بقواد بعثروهم كل مبعثر .

٦ ــ لم يبق أمامه إلا تهدئة العراق واستئصال شأفة الشغب من ربوعه فرمى سكان الرافدين بأصوب سهم في كنانته « الحجاج » فنفذ أمره فيها .

٧ ــ أما زعيم الهاشميين في ذلك الوقت ــ محمد بن الحنفية ــ الذى مرت بك ترجمته فقد دفعه

ميله إلى السلم وايثاره العافية على غيرها إلى بيعته والانضواء تحت رايته .

فلما تم له كل ذلك وأمن جائحة أعدائه وأذعن له من بقى من أقربائه بعث البعوث وجند الأجناد للفتح والغزو لنشر الاسلام في بلاد الهند وأقاصى الشرق حتى بلغت الدولة الأموية أوج مجدها على يديه ، وبعد أن اتسعت دائرة ملكه وانتشر فيها سلطانه أخذ يعمل للتودد من قلوب رعيته فقلع رداء التنمر وحط عنه لباس البطش لترى فيه رعيته الملك العادل اليقظ على إداراته المتنبه لشؤون أمته الساهر على حفظ أمانته .

فأمر ولاته بالرفق والتريث في الأحكام ، والاهتمام بالمشاورة وطلب النصيحة ، وقطع دابر الرشوة ، فعزل الموظفين الخائنين الذين لا يعرفون من الوظيفة إلا ملء جيوبهم وتأخير مصالح الناس وعدم قضائها في أوقاتها ، فكان بذلك شديد اليقظة كثير التعهد لولاته ، شديداً فى أحكامه عليهم ، روى الجاحظ : « بلغه أن عاملا من عماله قبل هدية فأمر باشخاصه إليه فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك أو استكفيته ما لم يستكفه إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدى إليك من مالك ما اتهمك به عند من استكفاك وبسط لسان عائبك وأطمع فيك أهل عملك إنك لجاهل وما فيمن أتى أمراً لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع نحيناه عن عمله[1] » .

* * * *

وقد اسدى إلى العروبة يداً تمجدها له العروبة ما دام أبناؤها على وجه الأرض وهى أمره بتحويل الدواوين الحكومية وتدوينها باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالرومية والفارسية ، وسكه النقود وطبعها بالطابع العربي الاسلامي بعد أن كان المسلمون يتعاملون بعملة تحمل طابع الروم . وكان سبب ذلك أنه كتب في صدور الكتب إلى الروم قل هو الله أحد ، وذكر النبي ﷺ مع التاريخ . فكتب إليه ملك الروم أنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون فعظم ذلك

(١) نقلا من كتاب الدولة الأموية في الشام لصاحبه أمين زكريا الصولى ص ٢٠٩ .

عليه ، فأحضر خالد بن يزيد ابن معاوية فاستشاره فيه فقال حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى فضرب الدنانير والدراهم وذلك في سنة ٧٦هـ(٢) .

وإنها لخدمة من أجل الخدمات التاريخية يذكر المسلمون بها عبد الملك بالاعجاب والاكبار وله بعد ذلك ميزات قلَّ أن توجد في غيره من الملوك نحيل القارىء في مراجعتها إلى كتب التاريخ وأسفار الأدب .

ولد عبد الملك سنة ٢٦هـ بالمدينة المنورة وتوفي سنة ٨٦هـ وكانت مدة خلافته ١٣ سنة وخمسة أشهر رحمه الله .



(٢) ابن الأثير ص ٢٠٢ ج ٤ .

« الحجاج بن يوسف الثقفى »

هذا الرجل الجبار الذي احتل جزءا كبيرا من تاريخ بنى أمية ، والذي صار مضرب الأمثال في القسوة والشدة . كان بغير شك رجلا محظوظا في حياته وما زال حسن الحظ ملازماً له حتى بعد وفاته ، وسيلازمه حسن الحظ ما دام اسمه مسطورا في التاريخ لتردده ألسنة الناس جيلاً بعد جيل .

فحسن الحظ هو الذي جعل من الحجاج « معلم الصبيان » رجلاً عظيماً وهو الذي جعل له بجانب سمعته السيئة آثاراً جليلة خالدة لا يمكن للتاريخ أن يغمطه حقه فيها .

فحسن الحظ هو الذي دفع الحجاج لمغادرة قريته وأغراه بأن يترك مهنته ويضرب في الأرض ؛ ولولا ذلك لطوته قريته كما طوت غيره من أبنائها ، ولما عرف الحجاج أحد من الناس .

وحسن الحظ هو الذي جعله ينتظم في سلك شرطة عبد الملك بن مروان حتى يصبح رئيساً لها ، ولولا ذلك ما عرفه عبد الملك ولما نبه ذكره .

وحسن الحظ هو الذي أنجاه من صواعق تهامة ليتم انهيار حكومة ابن الزبير على يديه[1] ولولا ذلك ما أشركه « أسد الغوطة » في توطيد ملكه .

وحسن الحظ هو الذي جعله يهزم ابن الأشعث ويمزق جيشه الكثيف الذي كان يكتسح سلطة الأمويين من العراق ويبتر من جسم الدولة الأموية عضواً من أهم أعضائها .

وحسن الحظ هو الذي جعل الإمام مالكا يفتى الرشيد بعدم هدم الكعبة كما كان ينتوى لإعادتها على ما كانت عليه زمن الخليل إبراهيم ليبقى للحجاج أثراً محسوساً في أقدس مقدسات

(١) يقال إن الحجاج لما نصب المنجنيق بجبل أبى قبيس وأمر جنده برمى الكعبة لاعتصام ابن الزبير بها أرسلت السماء صواعقها واجتاحت كل من دنا من المنجنيق فتهيب جند الشام وامتنعوا عن الرمى فجاء الحجاج وأخذ يرمى الحجارة من المنجنيق على الكعبة ويقول أنا ابن تهامة وأعلم بصواعقها فلما لم يمسسه سوء أقدم الشوام على الرمى حتى تم لهم الاستيلاء على مكة وقتل ابن الزبير .

المسلمين .

وحسن الحظ هو الذي جعل الخليفة الصالح « عمر بن عبد العزيز » ينفس على الحجاج فعل الصالحات فينبه الناس إلى مواضع الخير الكامنة في نفس الحجاج(١) .

وما دام حسن الحظ يلازم هذا الرجل في حياته فينجح في كل عمل يباشره ، وبعد مماته فينفس عليه الصالحون فعل الصالحات ، فإغفاله من بين رجالات الحجاز يُعد عقوقاً به وبالحجاز والحجازيين معاً ، فإذا ما ذكر عظماء الحجاز كان الحجاج من بينهم كالعَلَم الذي لا يمكن أن تخفى رؤيته على أحد .

* * * *

ولد الحجاج بقرية كوثر في ضواحى الطائف سنة ٤١ هـ ونشأ في قريته نشأة بدوية جافة وحجازية متقشفة ، فقرأ القرآن وجوّده ثم افتتح « كُتَّاباً » يُعلِّم فيه أطفال القرية القرآن .

ولكن هذه الحياة الهادئة بين أكواخ تلك القرية المتواضعة لا تتفق ونفسية الحجاج المتمردة الجبارة ، وكأنه كان يحس في قرارة نفسه أنه خلق لعمل غير العمل الذي هو فيه ، فهجر قريته لتأكده أنها لا تصلح لأن تكون ميداناً لتحقيق أمانيه الجياشة التى كان يفور بها صدره . والحق أن تلك القرية الصغيرة النائية عن ميادين النضال والمنافسة لا تقوى على احتماله في قوته وطموحه وإن قويت فهى لا تستطيع أن توصله إلى ما وصل إليه من الشهرة وبُعد الصيت التى نالها فيما بعده وكل ما تستطيع أن توصله قريته اليه هو أن تجعله شيخاً من مشائخ الأعراب في هضبة من هضبات الحجاز دون أن يحس به أحد . ولم تبين الكتب والمراجع التى وصلت إلى يدى أن أحداً دعاه إلى هجر تلك الحياة الوادعة وزين له حياة غيرها كما أنها لم تثبت هل هو سافر إلى الشام رأسا أو ذهب إلى غيرها من البلاد ، ثم قذفته المقادير على دمشق قبلة الأنظار ووجهة ذوى الطموح في ذلك الوقت ، ولكن الذي بينته أنه ولّى ولاية في نواحى نجران على قرية يقال لها تبالة قبل التحاقه بشرطة عبد الملك ، ولكنه لم يباشر عمله فيها

(١) قال عمر بن عبد العزيز ــ وكان يبغض الحجاج ــ ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه للقرآن وإعظامه أهله وقوله حين الوفاة : اللهم اغفر لى فإن الناس يظنون أنك لا تفعل . وقال حين حضرته الوفاة :

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا ... بأننى رجل من ساكنى النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ... ما علمهم بكثير العفو غفار

احتقارا لها فإنه لما أشرف عليها سأل عنها فقيل له خلف هذه الأكمة ، فغادرها قبل أن يصل إليها كبرياء منه وأنفة أن يكون أميراً على بلدة حقيرة تسترها عن عينيه أكمة صغيرة — كما قال —

وهنا يغلب على الظن أنه جاء من قريته إلى مكة فتكون ولايته على تبالة من قبل ابن الزبير لأن تلك النواحى كانت في ذلك الوقت تحت سيطرته .

ويبدو لي أن الحجاج كان — حين استصغاره الامارة على تلك القرية — يحس في قرارة نفسه بأنه رجل مجدود وان الحظ سيعوضه إمرة أعظم شأناً وأجل خطراً منها فلذلك رفض أن يكون أميراً على تلك القرية الصغيرة ، فالمعروف أن من كان معلماً للصبيان لا يسوغ له أن يرفض إمرة ساقتها الأقدار إليه ويعود خلو الوفاض منها .

عاد الحجاج من حيث أتى غير آسف على ما فرط باستهانته لتلك الامارة . ولكننا لا نلبث أن نرى الحجاج يجوس شوارع دمشق بملابس الشرطة ولا يمضي عليه كبير وقت حتى نراه مديراً للأمن العام في عاصمة الأمويين فيقوم بأعمال تلفت نظر عبد الملك إليه فيقربه ويدنيه ، وتزداد بمرور الأيام ثقة عبد الملك به فيؤمره على حملة عظيمة ويكل إليه أمر القضاء على منافسه في الخلافة — عبد الله بن الزبير — فيظهر الحجاج من البراعة في قيادة تلك الحملة ما يجعله يوردها موارد الظفر ، فيوليه الخليفة أميراً على الحجاز ثم ينقله إلى العراق بنفس تلك الوظيفة ؛ وفي العراق يظهر الحجاج بالمظهر الذى أحب لنفسه أن تظهر به ، فتبدو عليه سيماء العظمة والإرهاب ويبلغ الحجاج أوج مجده .

* * * *

أرأيت كيف عمل حسن الحظ عمله في تكوين الحجاج حتى جعله عظيما ومن أفذاذ العظماء ، ولكن لا يغرب عن بالنا أن الحجاج كان لديه من حسن الاستعداد ما يجعله يعرف كيف يستغل حسن حظه ويسخره لمطامعه ومطامحه فقد كان لا يدع فرصة سانحة تمر به دون أن يهتبلها لصالحه ، ثم إنه كان له من وفرة عقله ومتانة خلقه ما يهيئه لتبوء منازل العظماء ، يقول أبو العلا : « رأيت عقول الناس يقرب بعضها من بعض إلا الحجاج واياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس » ويقول ابن عساكر « تغذى الحجاج يوماً مع الوليد فلما انفض غذاؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ ، فقال : يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت ولكنى أنهى عنه أهل عملى

أكره أن أخالف قول العبد الصالح « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه »[1] ثم هو أفصح الناس لساناً ومن أقواهم جناناً ، وكان من الخطباء المبرزين في زمانه ، قال عبد الملك ابن مروان لخالد بن سلمة المخزومى : من أخطب الناس ؟ قال أنا قال ثم من ؟ قال سيد جذام ــ يعنى روح بن زنباع ــ قال ثم من ، قال : اخيفش ثقيف ــ يعنى الحجاج ــ قال ثم من ؟ قال : أمير المؤمنين قال ويحك جعلتنى رابع أربعة قال نعم هو ما سمعت[2] .

وقد حبَّبه إلى قلوب الخلفاء من بنى أمية إخلاصه لهم وتفانيه في خدمتهم وتوطيد ملكهم مع زهده في أموالهم .

مات الحجاج عام ٩٥هـ « ولم يترك إلا ثلثمائة درهم ومضجعاً وسيفاً وسرجاً ومائة درع موقوفة[3] ولعل ذلك راجع إلى نشأته الحجازية المتقشفة كما نرجح أن إقدامه على سفك الدماء وإسرافه فيها راجع إلى نشأته البدوية الجافة .

وقبل أن أختتم الحديث عن الحجاج أورد خطبة من خطبه الموجزة كنموذج لما كان عليه من الفصاحة في قوله والصرامة في فعله :

« شاهت الوجوه ، (ضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وأنتم أولئك وأشباه أولئك فاستوثقوا واستقيموا فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تذروا العصيان ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تنقادوا وأقسم بالله لتقبلن على الانصاف ولتدعن الارجاف وكان وكان وأخبرنى فلان عن فلان والهبر وما الهبر أو لأهبرنكم بالسيف حتى يدع النساء أيامى والولدان يتامى وحتى تذروا السهمى وتقلعوا عن هاوها . إياى وهذه الزرافات : لا يركبن الرجل منكم إلا وحده ، ألا أنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبى فيء ، ولا قوتل عدو ، ولعطلت الثغور ، ولولا أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعاً » .

وكانت سنه حين وفاته ٥٤ سنة وله من المنشئآت مدينة واسط بالعراق .

(١) الدولة الأموية في الشام للأستاذ أمين زكريا الصولى ١٥٩ .
(٢) و (٣) المرجع نفسه .

« حارث بن كلـدة »

طبيب . . . وموسيقار

قلنا إن الحجازيين ما زالوا أياً كان من الأعمال إلا كانوا فيه من المبرزين ، وما ولجوا طريقاً إلا كانت خطاهم فيها مسددة ، وما وجهوا عنايتهم لأمر من الأمور إلا كانوا أئمة يقتدى بهم ، وقد قرأت مما تقدم من سِيَر رجالاتنا صفحة موجزة دلّتك على مبلغ تفوّقهم في مختلف الشؤون التى قابلتهم بها ظروف حياتهم فما قصروا بل كانوا في تحمل أعبائهم من الأكفاء الممتازين .

وكان قيامهم بتمثيل الأدوار التى عهد إليهم التاريخ بتمثيلها على مسرح الحياة مثيراً للدهشة والإعجاب إذ أدى كل فرد منهم دوره على أكمل وجه واتمه .

وأحاول الآن أن أطلعك على شخصية جديدة من شخصياتنا الأفذاذ فينا لتعلم أن ذكاء الحجازيين لم يقف عند حد ، بل ترك لنا الآباء في كل ميدان من ميادين الحياة المجدية أثراً خالداً وفخراً نشيد بذكره . تلك هى شخصية طبيب العرب المشهور « حارث بن كلدة » .

يقول الأستاذ زكريا الصولى في حديثه عن الحارث بن كلدة : « إنه شاب حجازى ولد في الطائف ورحل في طلب صناعة الطب إلى اليمن وفارس وأخذ عن أشهر أطباء جنديسابور ، وأصاب في بلا العجم مالاً كثيراً لمداواته عظماءها وكبراءها » .

إذاً ، فهذا الشاب الحجازى ابن الأباطح والخيوف ، ابن البلاد الصحراوية والجبال المجدبة والمغاور الموحشة ، وسليل الأمة الأمية ، بزَّ بذكائه وعبقريته أبناء فارس ، أبناء العلم والمعرفة وذوى المدنية والحضارة ، وسليل الملوك والعظماء من أهل الصول والطول . وأقر له بالنبوغ في الطب كبراء فارس وعظماؤها ، فحبَوه بالأموال العظيمة تقديراً لنبوغه واعترافاً بتفوقه وإقراراً منهم بفضله ، فيما أسداه من الخدمات الصحية الموفقة لمحاربة الأمراض في بلادهم ، وإن كان ليس في هذا ما يدعو للفخر ، فإن من دواعى الفخر أن يفوز الحارث على منافسيه من أبناء مهنته ـــ أبناء الفرس ـــ في عقر دارهم ، وأن يكون له من المؤهلات ما يدع وجهاء الفرس يتهافتون على طبيب حجازى ـــ

غريباً عنهم — يعالجهم ويدعون أبناء جنسهم من الأطباء الذين تزخر بهم بلاد فارس وهكذا يتفوّق الذَكاء الحجازى في شخص الحارث على الذكاء الفارسى وهو في أوج مجده أفلا يسوغ لنا أن نفتخر به ، وإن كنا نشكر لأبناء فارس تقديرهم للعبقرية واعترافهم بفضل صاحبها أنّى كان دون أن يتذرعوا بالتعصب الأعمى انتصاراً لأنفسهم على الغير ، وإننا نرى الآن من يتعصب لنفسه ويغمط حقوق غيره حسداً وهم بذلك إنما يسيئون لأنفسهم ويسيئون إلى المجتمع الذى يحيون فيه فيحرمونه من كفاءات ومواهب تنفع ولا تضر ، فهل لأمثال هؤلاء أن تميل نفوسهم إلى السماحة التى اشتهرت بها نفوس أبناء فارس منذ أجيال ، لتحسن ذكراهم وتطيب سيرتهم أحياء وأمواتاً ؟

ولم يقف الحارث قانعاً بما وُفق إليه من النجاح الذي صادفه في حياته العملية في أرض فارس ، بل راحت نفسه الطموحة تدفعه الى الاستزادة من العلم في مهنته ؛ يقول الصولى : « وتمرن في طبابة العيون حتى طار صيته فيها . وكان معاصراً للنبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، وأدرك أيام معاوية رضى الله عنه ثم هزه الحنين فاشتاقت نفسه إلى موطنه فرجع إلى الحجاز فدرس أمراض العرب وعرف ما تعتاده القبائل من المعالجات » ماذا أقول ؟ أأكون مبالغاً إذا قلت إن طبيبنا الحجازى الأول « الحارث بن كلدة » غمطه التاريخ فلم يوفه حقه من الاعتناء فما أشاد بذكره كما أشاد وأفاض في ذكر النابغين من أطباء الأمم الأخرى ؟ ألم تكن دراسات الحارث لأمراض العرب ومعرفة ما تعتاده القبائل من المعالجات كدراسات غيره من أساطين الطب في هذا العصر وكل عصر ؟ ، ألم تكن دراساته هذه مشاركة فعلية شارك بها زملاءه من أطباء الإغريق والفرس والهنود والمصريين في وضع أسس الطب وخدمة الانسانية المعذبة ؟ وإنه لعمر الحق بعمله هذا يعد من السابقين الذين يعود إليهم الفضل في تسهيل مهمة الأطباء اليوم بما وصل إلى علماء الطب من المعلومات عن طريقه .

وكما خدم الحارث الطب بعقله كذلك خدم الموسيقى بذوقه وفنه إن لم نقل إنه هو أول من اخترع الموسيقى العربية وأول حجازى ضرب على العود ؛ يقول الصولى : « وكان الحارث موسيقياً ماهراً فضرب على العود ولعله اقتبس ذلك من فارس » .

يظهر من هذا أن الموسيقى لم تعرف عند عرب الحجاز ، فلما ذهب الحارث إلى بلاد فارس اقتبس من غناء الفرس ، واجتهد في أن يضع أنغاماً عربية توافق أمزجة الحجازيين والعرب . ولا يبعد أنه اهتدى — وهو الطبيب الماهر — إلى أن للأنغام تأثيراً عظيماً في معالجة بعض الأمراض فاستعان بالموسيقى على أداء مهمته الصحية .

لقد كان الحارث من عباقرة الأطباء ــ بشهادة الفرس ــ وكان له دماغ الفيلسوف الذي لا يعسر عليه أن يكتشف المجهول ويخترع المعدوم ، لذلك نراه يميل إلى الموسيقى لعلمه بما لها من التأثير في النفوس فيستعين بها في أداء مهمته ، فإن لم يكن هو أول من اهتدى إلى معالجة المرض عن طريق الموسيقى ، فلا أقل من أن يكون من السابقين إلى ذلك .

* * * *

وللحارث كلمات طيبة مأثورة يتناقلها الناس ، منها : « الداء الدوى إدخال الطعام على الطعام ، لا تدخل الحمام شبعان ، ولا تنم بالليل عريان ، ولا تقعد على الطعام غضبان وارفق بنفسك يكن أرضى لبالك ، واقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك ، من سره البقاء ــ ولا بقاء ــ فليباكر الغداء ، وليعجل العشاء ، وليخفف الرداء ، وليقلل من الجماع » هذه الكلمات الخالدات تدلك على مبلغ تعمق الحارث وتبحره في صناعته ، ومبلغ معرفته مدى المؤثرات في جسم الانسان . ألست تلمح في قوله : ولا تقعد على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك يكن أرضى لبالك ، تقريراً موجزاً على ما للانفعالات النفسية من التأثير البالغ في الجسم وما تحدثه فيه العواطف المختلفة من آثار لها مفعولها ألم يكن لأقل من هذه الأعمال ما يوجب التقدير ؟

لو لم يكن من تقاليدنا الاسلامية تحريم إقامة التماثيل لاتخذنا لك يا ابن كلدة تمثالاً من الذهب الوهاج ، ولأقمناه في أهم ميادينا إحياء لذكراك واعترافاً بجميلك فلا غرو أنك من الأفذاذ الذين وقفوانبوغهم وعبقريتهم لخدمة الانسانية ورفاهيتها والسعى لكل ما يخفف آلامها وأسديت للبشرية أيادى بيضاء وخدمات جليلة بما اهتدى إليه عقلك الجبار وبما وفقت إليه من الأعمال المشكورة التى تستحق بها التخليد والإكبار فإنك في نظري لا تقل في عقليتك عن عقلية أعاظم الفلاسفة الذين يمجدهم الناس في كل وقت وآن ويرجعون إليهم الفضل في وضع القواعد الأولية للطب والموسيقى .

ولكن في سبيل الله ما لاقيت من عقوق ِوغمط وفي ذمة التاريخ ما منيت به من إهمال وحرمان .

وعسى أن أوفق فأفيض مرة أخرى في البحث عنك وعن آثارك أداء للواجب نحوك أيها الطبيب الكبير والموسيقار الماهر .

« عبد الله بن عامر[1] ــ وعبد العزيز بن مروان »

كانت الدولة الفارسية الدولة الوحيدة تحت سماء الشرق في القوة والعظمة وبعد الصيت كما كانت الدولة الوحيدة تحت سماء الغرب دولة الرومانيين . وكانت الشعوب الضعيفة طعمة سائغة لنهم هؤلاء وهؤلاء . كما هى الحال في وقتنا الحاضر ، فالأمم الوادعة المستكينة فريسة لجشع الدول القوية رغم أنف عصبة الأمم المنهارة ومجلس الأمن المقام اللذين أوجدتهما المدينة الحديثة لإقامة العدل وحفظ الأمن وصيانة حقوق الضعفاء كما يقولون !

إن البشرية لم تتقدم خطوة واحدة نحو الكمال الإنسانى المنشود بل إن كل ما نراه من مظاهر التطور ، وكل ما نسمع به من الدعاوى الطويلة العريضة للمحافظة على المبادىء الانسانية القويمة إنما هى ستر وأغشية تتذرع بها الأمم القوية لتخفي وراءها وحشيتها المفترسة وما تكنه قلوب عتاتها من النوايا السيئة وما تريد الإتيان به من أعمال العدوان حيال أخواتها من الأمم الوادعة في بلادها عند سنوح الفرص الملائمة . فالبشر لا تقل حالتهم اليوم عما كانوا عليه منذ ألفى سنة تقريبا حينما كان الناس يئنون من نير الفرس والرومان في ذلك الوقت ، والمدنية الحديثة لم تخفف من وطأة النفوس الجشعة شيئاً بالمرة ، إن لم نقل زادتها ضراوة واستئساداً .

ولكن الذين يعتمدون في نشر سلطانهم على القوى المادية لا يلبثون أن يرتدوا على الأعقاب . وإن كنا نرى أن الماديين ينالون من الانتصارات التى يفاجئون بها الناس ما يسرهم ، فإن سرورهم بمثل ذلك لا يدوم كثيراً ، فالقوى المادية مهما بلغت بأصحابها من العظمة والهول فهى لا تستطيع أن تثبت طويلا أمام قوة الحق وحرارة الايمان بالعقيدة التى إذا اشتعلت في النفوس تصهر بأوارها أفتك ما يتذرع به الماديون لحماية أنفسهم وامتداد نفوذهم .

---

(١) ولد عبد الله بن عامر بالمدينة في حياة الرسول ﷺ وقد دعا له بأن يسود وقد استجاب الله دعوة نبيه . تجد ذلك مفصلا مع تعداد آياته في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فليراجع ذلك من شاء .

فنيت أمم وانقرضت شعوب وبادت ممالك ودرست قوميات كانت مفقودة من القوى المعنوية وكانوا لا يعتمدون في البقاء على وجه الأرض محتفظين بكيانهم إلا إذا كان لهم من القوى المادية ما يكفيهم لأن يستندوا عليها في بقائهم . فلما جاءت الأمة العربية تحت زعامة الحجازيين الذين زودوها بكل ما تحتاجه من القوى المعنوية التى هى نقطة دائرة الحياة ودفعوا بها لمنازلة تلك الأمم والشعوب والممالك والقوميات ما لبثوا لها فواقاً حتى كان الاندحار والتقهقر في مقدمة ما منوا به من الدمار . وان لنا في هذه الحوادث التاريخية درساً بليغاً يجمل بنا أن نطبقه على حياتنا اليوم وغداً .

تقلص سلطان الفرس والرومان عن كثير من الممالك والشعوب أمام جنود العرب الذين لا نجد لهم من القوى المادية ما يجعلنا نناسب بينها وبين ما كان لدى جنود الفرس في القادسية وجموع الروم في اليرموك . وتغلبت القوة الروحية التى كانت تدفع العرب لمنازلة أعدائهم على عظمة المادة وطغيانها ، وكان نصيب المادية أن هوت بأصحابها إلى الحضيض .

بعد هذه التجارب التاريخية المحققة يتضح لنا أن النفوس التى تستمد قوتها في طموحها — اليوم — من المدفع والأسطول والمدمرات والقاذفات لا تلبث إذا ما افتقدت تلك المنشآت من موانئها وحصونها وهاتيك المفرقعات من مخازنها ومستودعاتها أن تخنس خنوس الثعالب في أحجارها . وقد أرتنا هذه الحرب كيف خنست أمة الألمان بعد نفاذ ما بيدها من عتاد وعدة وهى أغنى الأمم الأوربية وأقواها .

أما النفوس التى لا تستند في طموحها إلا على قوة إرادتها ومضاء عزيمتها لا تبالى ماذا يعترضها في سبيلها ، إذ غايتها في جهادها إحدى الحسنيين : إما الصدر لأداء أمانتها وتبليغ رسالتها الانسانية في العاجلة أو القبر لتنال شهادتها وتفوز بسيادتها السرمدية في الآجلة فتلك هي التى يكتب لها الفوز في ميادين النضال .

نعم ، لا ننكر أن للميادين صولة ولكنها كزبد السيل لا تلبث أن تضمحل « فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

دعانى لكتابة هذه الكلمة في ترجمة المعنون لهما ما نراه اليوم من تهويل الناس لأمر أوربا وما هى فيه من العظمة الحربية وما أحدثت من مدمرات ومخترعات تهويلا تنخلع له قلوب الذين في قلوبهم مرض . فأردت أن أعود بالقراء إلى صدر الاسلام لعلهم يتخذون من غلبة آبائهم لغيرهم ممن هم أقوى منهم عدة وأكثر منهم عدداً ، درسا ينتفعون به وذكرى تستثير كوامن مؤهلاتهم

المتحدرة إليهم من الآباء والأجداد ، فإن الآباء والأجداد حينما كتب الله لهم الغلب في الأرض لم ينتصروا في مواقفهم بما أعدوه من قوى مادية اعتمدوا عليها في منازلة خصومهم . بل نراهم كسروا لما قالوا : « لن نغلب اليوم من قلة » أما يوم كانوا في فقر وفي قلة[1] إلا من سلاح المتانة في الأخلاق والصبر على المكاره والاعتماد على النفس والثقة بالله والتكاتف والاتحاد والأثرة نصروا .. وكانوا إذا جاهدوا لا يبالى أحدهم أجاهد في سبيل الله أميراً أم عادياً سيان لديه ما دام يؤدى واجباً تنازعه نفسه على أدائه ولا يرتاح ضميره دون القيام به قياماً ، بما يفرضه عليه دينه ووطنه وأمته ، هذا السلاح هو الذي اندكت أمامه الحصون واستقادت لسطوته الأمم والشعوب .

وعلاوة على ما كان للفاتحين الأولين من الانتصارات المتتابعة والفتوحات المتوالية لم تبطرهم نعمة الله عليهم فما ظلموا لما حكموا ولم يتعدوا الحدود التى حددتها مبادىء الانسانية القويمة التى علمهم إياها محمد بن عبد الله ﷺ ، بل حكموا رعاياهم حكما عادلا رحيما ترك لهم في قلوب الأمم التى صير الله أمرها إلى أيديهم ذكرى حسنة لا يمكن أن تمحى أبداً ، فكان التأييد حليفهم في جميع ما أقدموا عليه من أعمال جسام ، وما جمدوا واكتفوا بما لديهم من سلاح بل كلما جد جديد أخذوا به وتعلموه وأتقنوه وقابلوا أعداءهم بسلاح يضاهى سلاحهم ، ويزيد عليه متانة وجودة خلافا لما عليه المسلمون اليوم .

أعود بعد هذا إلى التكلم عن المعنون لهما فلنا في سيرتهما برهان على ما كان عليه القوم آنذاك من الفطنة في حكم الشعوب المختلفة إذ كان ولاتهم يحكمون كل قطر بما يناسبه ويسيرون في كل أمة بما يلائمها حتى لتكاد سياستهم تكون المثل الأعلى لمن صدر نفس لسياسة الشعوب . كانوا يتحرجون عن إتيان كل عمل يثير ضجة أو يحدث شغباً فلا ينتهكون الحرمات ولا يمتهنون المقدسات ، ويبتعدون ما أمكنهم عن كل ما من شأنه أن يثير المحكومين . وما أحوج أدعياء الدهاء والسياسة اليوم أن يتخذوا من سيرة هؤلاء الأقدمين أسوة حسنة يتأسون بها في إدارة الشعوب . إذاً لما نقم عليهم أحد من الناس .

* * * *

(١) لا يظن ظان بى أنى أريد بذلك الدعوة إلى عدم إعداد العدد لمنازلة الخصوم أو أنى داعية إلى التواكل والتعرض إلى الخطر ولكنى أريد أن يتقدم إعداد صفات يجب أن تكون في المقام الأول فيضمن النصر في المواقف إلى من يتعرضون لها .

سلوا العراق وفارس هل فازتا في جميع أدوارهما التاريخية بمندوب سام أشفق أوأرأف من عبد الله بن عامر المنتدب لحكمها من قبل الجالس على عرش الإمبراطورية الإسلامية ــ عثمان بن عفان ــ وسلوا مصر هل فازت فيمن انتدبوا لحكمها من قبل الحكومات المختلفة بمثل مندوبى الحجاز من أضراب عمرو بن العاص إبان حكم عمر بن الخطاب ، أو بمثل عبد العزيز بن مروان في زمن حكومة مروان بن الحكم .

ما كان الخلفاء ولا الملوك الحجازيون يزودون مندوبيهم في حكم الشعوب بأدوات القوة والقهر لإرهاب النفوس ولتثبيت نفوذهم في الآفاق فلم تكن لديهم من الغازات الخانقة والمواد المهلكة والأساطيل التى تحمل في أجوافها الوباء والسموم والطائرات وما تحتضنه من وابل المقذوفات الجهنمية للفتك بعباد الله الآمنين في ديارهم مثل ما نراه اليوم لدى الحكومات الجشعة لتثبيت أقدامها في حكم الشعوب . وإنما كانوا رضوان الله عليهم يزودون مندوبيهم في الأقطار باتباع أمثل الطرق في الأحكام والابتعاد عن الظلم والمحافظة على الأخلاق الفاضلة والوفاء بالعهود والمواثيق واحترام شعور محكوميهم ونشر مبادىء الديمقراطية بين الطبقات المختلفة وأخذ الزكاة من الأغنياء وتفريقها على الفقراء لحفظ توازن المجتمع الذي يحكمونه ، وبث العلم ، والقضاء على الأمية والجهل ، وتوجيه الشعوب إلى ما فيه خيرها ورخاؤها مادياً ومعنوياً والأخذ برأي عقلائهم ومفكريهم ومعرفة أقدار الناس ، فلا يهينون عزيزاً ولا يذلون سيداً ، والتحبب إلى الجماعات والتودد إلى الجماهير . بهذا وأشباهه كانوا يزودون ولاتهم فاستقام لهم الأمر من حدود الصين إلى تخوم أوروبا .



« عبد الله بن عامر »

عهد عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين إلى عبد الله بن عامر بولاية البصرة وانتدابه للقضاء على الدولة الفارسية فقام بأعباء وظيفته في الحكم خير قيام وما لبث أن استمال قلوب الأهالى إليه واستطاع أن يسير بهم لغزو فارس والقضاء على دولة الأكاسرة ، فافتتح كثيراً من البلاد وانتصر فى كثير من المواقع وقضى على دولة يزدجرد آخر ملوك الفرس . ولكن لم تذهب بابن عامر لذة الفتح ونشوة النصر إلى التكبر أو التجبر ، بل كان رقيقاً برعيته شفوقاً عليها عادلا فيها ، ومما يذكره له التاريخ أنه لما افتتح سجستان وجد أهلها يقدسون الأفاعى والقنافذ وبنات عرس فامتنع عن قتلها وأمر جنوده بعدم التعرض لها ، فأنس به السجستانيون وأحبوه ولم يعدلوا بحكمه حكما ، وأنساهم ما رأوه فيه من المرونة السياسية غيظ نفوسهم وأذهب عنهم الكره والتبرم اللذين يعتلجان عادة في صدور المغلوبين على أمرهم ، وتلاشى كل ما كان في قلوبهم من الإكبار والتعظيم لملوكهم وحكامهم الأصليين ، إذ وجدوا من هؤلاء العرب أناساً لديهم من حب الانسانية وتقدير العواطف ومراعاة الميول ما لم يجدوه عند الملوك والدهاقين من جنسهم فاطمأنوا إليهم وعز عليهم أن يفتقدوهم من بينهم .

لما حصلت الفتنة بين علي ومعاوية ونشبت تلك الحروب الداخلية بينهما ، آثر عبد الله بن عامر أن يكون محايداً وخرج من البصرة يريد الشام معتزلا الفتنة فعز على رعيته خروجه وأسفوا على سفره ، يتمثل لك ذلك على لسان شاعرهم أبى العنبس حارثة بن بدر حيث يقول :

أتاني من الأخبار أن ابن عامر ... أناخ وألقى في دمشق المراسيا
يطيف بحمامى دمشق وقصره ... بعيشك إن لم يأتك القوم راضيا
رأى قبل إنقاذ الفراص وقيعة ... وكان إليها قبل ذلك داعيا
كأن الشريجيات فوق رؤوسهم ... بوارق غيث راح أو طاف دانيا
فند نديداً لم ير الناس مثله ... وكان عراقياً فأصبح شاميا

وكان رحمه الله كريماً متلافاً للمال فكانت هباته تحمل من البصرة الى المدينة المنورة لتفرق بين المهاجرين والأنصار مما كان يفيض عليه من غنائم الفرس وناهيك بغنائم فارس ومقتنيات ملوكها التى أفاءها الله على المسلمين على يديه .

وله بالعراق إصلاحات عظيمة تمت على يديه ، ومن كيسه الخاص أقام جسورا وافتتح شوارع ووسع أسواقا[1] وشاد عمائر مما لا يسعنا تفصيله الآن .

ثم إنه كان متحمسا للوحدة العربية الاسلامية ، فكان يذهب إلى رؤساء الناس زمن الفتنة بين علي ومعاوية ويقول لهم : « الله الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم » وبالجملة فلقد كان أميراً فذاً وسياسياً كبيراً وزعيماً وسيداً كريماً تضن العواتق أن يلدن مثله وما بالك بمن يقول فيه الإمام علي كرم الله وجهه حينما ذكر بحضرته « ذاك سيد فتيان قريش » ولقد حزن معاوية بن ابى سفيان على موته حزنا عميقا يتمثل لك في قوله حين أُخبر بوفاته « رحم الله أبا عبد الرحمن فبمن نفاخر ؟ وبمن نباهى ؟ » .



(١) تذكر بعض كتب التاريخ أنه اشترى دوراً وهدمها لتوسيع سوق البصرة من ماله .

« عبد العزيز بن مروان »

اعتاد كتاب مصر أن يكتبوا عن كل مندوب سام حل ببلادهم للذكرى والتاريخ وهم حينما يكتبون إنما يكتبون اهتماماً للآثار التى يخلفها مندوبو الإمبراطوريات المختلفة التى قدر لها أن تضم مصر إلى حوزتها ، وما يتركه كل مندوب في نفوسهم من أثر إن حسناً أو قبيحاً ويوازنون بين عمل كل منهم ويعطونه حقه من التقدير أو الامتهان .

فلأدع الكتابة عن هذا المندزب السامى ــ عبد العزيز بن مروان ــ الذي شب وترعرع بين حراء والمدينة وجبال تهامة فتكونت عقليته من إلهامها ثم تصرفت في مقدرات القطر المصرى بانتدابه لحكمه في خلافة أبيه ، للدكتور حسن إبراهيم أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب في مصر فلقد تحدث لنا عنه هذا الكاتب المصرى في عدد الرسالة الممتاز الصادر في أول سنة ١٩٥٧هـ فكفانى مؤونة البحث وعناء التحرير .

قال بعد كلمة وجيزة تحت عنوان « مظاهر الحكم في مصر الأموية » بصحيفة ٥٠٠ :

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر جاء في صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير ، وبقي فيها شهرين ولما عزم على العودة إلى الشام جعل صلات مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز . وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبنى أمية ، فخاف عبد العزيز عاقبة مقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه ، فرسم له هذه الخطة المثلى التي ينبغي أن يسير عليها فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم ، وتبيّن له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب والبشاشة وبيّن لكل زعيم أنه من خاصته وبهذا وحده يتفانى الجميع في خدمته ، ويجمع الكل على طاعته . يقول الكندى[1] : قال عبد العزيز « يا أمير المؤمنين كيف

---

(١) المسعودى مروج الذهب ٣ ص ٣٦٦ .

المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية » فقال مروان : « يا بنى ، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقد قومه إليك ، وقد جعلت أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض . أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك في منزلك ؟ » .

وهذه هي النصيحة الذهبية التى زوّد بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته مصر ، ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح في وصية أخرى ما يكفل له بالراحة والطمأنينة في هذا البلد عند رحيله إلى الشام . فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر بالفقراء وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون المشورة رائدة قبل الفصل في أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء ويأمن الفتن والقلاقل . ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته في مصر النجاح كله ، وأتى في عهده بكثير من ضروب الاصلاح فبنى مقياسا للنيل ، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة ، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك سنة ٧٩هـ واتخذ حلوان داراً لإقامته بعد أن أصيب بداء الجذام ، على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل عيون الماء بالبركة ، وفي حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار ، وبنى المساجد والعمارات الفخمة حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار ، ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابتنى في الفسطاط حماماً لابنه ذبان وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة وباسمه تسمّت القيسارية التى كانت ملكاً لعبد العزيز باسم قيسارية أبى مرة وكانت تعرف في زمن ابن دقماق المتوفى سنة ٧١١هـ بحمام بثينة .

لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيح له أن يأتى بكثير من الاصلاح واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبى والمادى ، ولقد بالغ الشعراء فيما أتاه هذا الوالى من أعمال البر والإحسان والكرم فقال بعض المؤرخين إنه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ومائه جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى … عند عبد العزيز أو يوم فطر

وله ألف جفنة مترعات ... كل يوم تمدها ألف قدر

هذا بالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان فقد قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه في حلوان وقيسارية أبى مرة ، وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق . فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته ورثاه الشعراء أحسن رثاء ، فقال سليمان بن أبان الأنصارى :

فمن ذا الذى يبنى المكارم والعلا ... ومن ذا الذى يهدى له السفر ؟
فكنت حليف العرف والخير والندى ... فمتن جميعاً حين غيبك القبر
فبعدك لا يرجى وليد لنفعه ... وبعدك لا ترجى عوان ولا بكر

تلك هى مصر في فترة من حياتها الاسلامية الزاهرة في عهد عبد العزيز بن مروان من بنى أمية . انتهى ما نقلناه من الرسالة .

* * * *

فالمهم من كل ذلك أن يوازن القراء الكرام بين هذه العقلية الحجازية عقلية مروان وابنه في حكم الشعوب وبين العقليات الأخرى من الذين تداولوا حكم مصر وغيرها من أبناء الأمم المختلفة الذين يتشدقون بالعلم والمعرفة ويدعونها لأنفسهم ، ويرمون العرب بالجهل والهمجية ليروا كيف أن الحجازيين لم يتكبدوا في حكم البلاد ما تتكبده حكوماتهم وكيف قامت كلمات حكيمة لفظها الخليفة الحجازى من فيه بسهولة أوحتها إليه سليقته وذكاؤه الفطرى مقام الجنود الجرارة من ذوى الخوذات الفولاذية المزودين بالديناميت المتفجر والتى مع تزويدهم بها ما استطاعوا أن يضمنوا لأنفسهم الاستقرار والهدوء كما فعل العرب ؛ وهيهات أن تبلغ سياسة أوربا في القرن العشرين هذه التى قوامها الحديد والنار والتى جعلت العالم كأنه الأتون الملتهب مدى مدنية العرب وسياستهم في عصورهم الزاهرة تلك التى كان قوامها التحاب والإيلاف والتواد والتى كان شعارها دواماً غصن الزيتون حتى رفرفت على العالم في زمانهم حمامة السلام .

الإمامان الجليلان

مالك بن أنس و محمد بن إدريس

أي ذكرى مؤلمة تثور في النفس الحجازية الصميمة إذا ما تذكر المرء أن هذين الإمامين الجليلين ، الذين يقلدهما جزء غير يسير من المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم من يوم أن كانوا أحياءً إلى اليوم الذى نحن فيه دون أن يتطرق إلى مذهبيهما وهن أو ضعف ، حجازيان ، أحدهما مكى والآخر مدنى وأنهما كانا في حياتهما كعبة يحج إليهما الناس من كل فج عميق . وما زال علمهما مورداً عذباً سائغاً للشاربين ، وما زالت أقوالهما حجة يحتج بها في أمور الفقه والتشريع ، وما زال يخضع لفصلهما وهما تحت أطباق الثرى جميع الأحياء من المسلمين .

ذكرى مؤلمة تثور في النفس إذ ما تلفت المرء يمنة أو يسرة باحثاً في المجتمع الحجازى عمن يماثلهما بين علمائنا اليوم فيرتد إليه البصر خاسئا وهو حسير . أليس من المؤلم أن نرى حجازنا الذى أنجب في ماضيه أمثال هذين الرجلين يمنى اليوم بهذا القحط المزرى من العلماء ؟ وهو الذي لم يكن قبلاً من هو أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من علمائه ولا أحرص عليهما من فقهائه ، إن الأسف ليحز في النفس ، وإن الذهول ليستولى على كل غيور أن يرى أمته اليوم وأبناء وطنه وليس فيهم من يقارب في علمه وورعه ذلك الامام الجليل ــ مالك ــ الذى ما زال مذهبه في طليعة المذاهب الاسلامية وإن الدمع ليترقرق في المآق أسفاً وحزناً على هذه الأمة البائسة التى فرطت في تراثها وأهملت في بضاعتها حتى لم يبق في أبنائها من يخلف الشافعى في نبوغه وعبقريته ودأبه المتواصل على الانتاج في الفقه والأدب ، والقياس والاستنباط ، حتى أصبح قدوة يقتدى به الخلف بعد السلف على كر العصور وتعاقب الأجيال .

.... أين في الحجازيين اليوم من يصلح أن يكون خليفة لأحدهما ؟

يا سكان القبلة أليس لكم في الشافعي أسوة ؟ ويا أبناء طيبة لماذا لم تتخذوا من مالك قدوة ؟

أيليق بكم يا جيرة الحرمين أن تروا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا يوجهون أنظارهم إليكم كما يوجهونها إلى علماء الأقطار الأخرى حيث العلم الزاخر ، والعقل النيِّر ، والحجة الدامغة ؟

لماذا نرى علماء مصر — مع احترامي الشديد لمصر وعلمائها —[1] يتبوءون المقاعد الأولى في صفوف العلماء ؟ والحجازيون — لهفي على الحجازيين — الذين هم أَوْلَى من غيرهم بالتفقه في الدين الذى جاء به رجل الحجاز وسيد العرب محمد بن عبد الله وأورثهموه ، قابعون فى دورهم لا تسمع لهم ذكراً ، قانعين بأن يكونوا عالة على الغير ، حتى إذا ما أراد حجازى أن يباهى بعلماء حجازه لا يجد ما يقوله ولا ما يقدمه للمباهاة غير الجمود والتقليد والتواكل والتماسك . رضوا بما هم فيه فلا نقاش ، ولا بحث ، ولا تفكير ، حتى أدى بهم ذلك إلى هذا الركود وهذا التقصير . اللهم إن هذا غير لائق بجيران بيتك ولا هو بالمستحسن من سكان حرمك وحرم رسولك ، « اللهم إن هذا باطل لا يرضيك » .

عفوا أيها العلماء فما هى إلا صرخة مفؤود يسعه من حلمكم ما يأمركم به الدين فلكم فى رسول الله أسوة حسنة حيث كان يغض عن الإساءة ويعفو عند المقدرة ، فلقد شط القلم وما أريد الإساءة إلى أحد منكم وما أردت الانتقاص من احترامكم ولكن هى الذكرى المؤلمة حزت فى القلب ، وفاضت على اللسان ، فجرى بها القلم .

والآن أعود إلى الكتابة فيما أنا بصدده من ترجمة إمامينا الجليلين لعل ما سيسركم من ابنكم أكثر مما يغيظكم منه ، ربما قلتم ليس الإمام مالك ولا الإمام الشافعى فى حاجة إلى تعريف فما من أحد إلا وهو يعلم من هو الإمام مالك كما يعلم من هو الإمام الشافعى وهل يجحد أحد فضلهما فيما وقفا نفسيهما له من خدمة الشريعة السمحاء ونفع الناس .

وهنا يحق لى أن أجيب فأنا لا أريد أن أتحدث عن الإمامين لأعرف الناس بهما ولا لأعرفهم أين ولدا وكم قضيا من العمر ، ولا أريد أن أتحدث عن مبلغ ما أوتياه من العلم ، ولكن أريد توجيه الأنظار إلى مواضع العظمة فى نفسيهما والتماس السر الذى من أجله كتب لهما به الخلود استثارة للنفوس لعلها تنفض عنها غبار الكسل ، ويهب الحجازيون لاستعادة مكانتهم ومكانة حجازهم بين الأمم والشعوب فلا يدعون غيرهم ينعم بمخلفات الآباء ويستلب تراث أجدادنا فيفوز بالتجبيل والتكريم بينما ذوو

(١) وما أقول ذلك حسداً للمصريين ، فإننى أجلهم وأغبط وادى النيل الذى أنجبهم ولكنى أقولها إثارة للنفوس الخاملة من أبناء الحجاز .

الاستحقاق من الأحفاد يغطون فى نومهم العميق غير حاسين بما افتقدوه من معنويتهم ولا مفكرين فيما ينتظرهم من سوء العقبى إذا هم استداموا على ما هم فيه من الانزواء عن الأعين والتوارى عن الأنظار مفضلين البقاء فى الحجرات وخلف المقاصير طلباً للعافية على البروز فى المجتمعات وهداية الجماهير فى الأماكن العامة خشية ما يجره البروز من مختلف الشؤون والأقاويل .

* * * *

يغتبط المؤمن إذ يرى علماء المسلمين يكتبون ويتناقشون ، ويؤلفون ويستنبطون ويتحدثون ويفتون ، فتراهم فى المجتمعات مبشرين ومنذرين ، ويدوى الجو بأصواتهم التى يحملها الأثير إلى مختلف الأصقاع حاملًا رسالتهم التى أورثهم الله تبليغها للعالم ، فتتسلل كلماتهم وما تحمل من هداية ورشاد إلى الناس وهم على آرائكهم متكئين ، قياماً بواجبهم حيال الدين الحنيف والملة السمحة ، لا يألون وقوفاً أمام المذياع ليذكروا لجماهير اليابان فى أقصى الشرق ولأبناء أوربا فى أقصى الغرب محاسن ديننا ترغيباً فيه ، دافعين اتهامات الملاحدة بحجج دامغة ، باذلين فى ذلك جهدهم وقوة شكيمتهم فى بيان فصيح وتعبير رصين ؛ فيرضى الله عنهم فى عليائه ، ومحمد فى قبره ، والملائكة بهم فرحون ، والناس بهم معجبون . إنما الذى يحز فى النفس من كل هذا ألّا نرى بين هؤلاء الأعلام فى جهادهم المشكور أثراً للحجازيين الذين تقضى عليهم وضعية بلادهم أن يكونوا فى الطليعة قياماً بواجب دينهم الذى ما بزغت أنواره على العالم إلا من ربوعهم .

هذا القصور من الحجاز فى الوقت لحاضر هو الذى يملأ النفس أسى والقلب حسرة فإذا ما ذُكِّرَ الناس بمالك والشافعى أرجو أن تتنبه الأنفس لحاضرها ويعلم المواطنون أن الحجاز ما كان كذلك فى ماضيه لذلك أريد أن أتكلّم عن هذين الإمامين . والله تعالى يقول فى كتابه وهو خير القائلين « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وإنى تارك للقلم عنانه فليكتب كيفما تسعفه الكتابة ويحلو له التصوير وعسى أن يشفع لى حسن قصدى وسلامة نيتى فيما يجرى به من تعبير .



« مالك بن أنس رضى الله عنه »

كان يقول المسلمون « لا يفتى ومالك بالمدينة » يوم كان مالك يدوى صوته فى مسجد صاحب القبر الأعطر ، فتتجاوب الأقطار الإسلامية بصدى صوته ، ويذعن الناس لفتواه ولا يجرأ عالم مهما كانت منزلته أن يفتى ومالك بالمدينة لأن مالكاً أعلم الناس بدين الله وسنة رسوله . أما اليوم فلا يتوقف علماء المسلمين عن الفتوى لأن مالكاً قد مات وطوته الأرض وليس بالمدينة من يخلفه .

لبيك من شاء من الحجازيين دماً ، ولتتمزق أكبادهم حسرة على ما فرطوا ، فليس لديهم اليوم عالم له من المكانة ما كان لمالك وليس لدينا من يستحق أن يلقب بعد مالك بـ « إمام دار الهجرة » أتعلمون لماذا كان لمالك من المكانة ما كان ؟ لأنه كان كامل النفس لا يزيد مع الخلفاء عن الأدب الذى يوجبه عليه الدين . قدم المهدى المدينة فبعث إليه بألفى دينار فقبلها ثم وجه إليه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة السلام فقال له : قل لأمير المؤمنين المال عندى على حاله [1] » .

كما أنه « كان شديد الحرص أميناً على العلم ، قال جرير إن أبا جعفر المنصور عزم أن يحمل الناس على موطئه ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديداً فدع الناس وما هم عليه [2] » .

ولأنه كان لا تأخذه فى الله لومة لائم فلا يبالى الجلد ولا السجن ، حتى القتل كان لا يبالى به مالك فى سبيل ما أوتيه من العلم . وكان لا يداجى فى دين الله الأمراء ولا الملوك ، ويقول الحق ولو فيه ذهاب نفسه وما كان سبب جلده وخلع كتفه إلا قول الحق الذى أمر الله العلماء أن يجهروا به فيصدق حينذاك عليهم القول المأثور « العلماء ورثة الأنبياء » .

---

(١) و (٢) حماة الإسلام .

فإذا جهر العلماء ولم يخفوا ما علمهم الله خشية من الله كانوا ورثة الأنبياء بحق وإذا كتموا العلم الذى آتاهم الله من فضله خشيةً من الناس حقت عليهم الكلمة المأثورة « كاتم العلم ملعون » .

كان مالك رحمة الله من الصف الأول وكان ما ذكرناه من خصاله التى تتجلى فى أقواله وأفعاله السبب الوحيد الذى كتب لمالك به الخلود ، لا كما قد يسبق إلى الأذهان من أن خلوده لكثرة علمه ومظاهر روعه . لذلك تمذهب الناس بمذهبه وقلدوه فى عبادة ربهم ، فقد كان رحمه الله لم يطلب العلم طمعاً فى جاه ولا رغبة فى دنيا يصيبها أو سلطة يتعالى بها ،ولكنه طلب العلم ابتغاء وجه الله فأحيا الله ذكره طيلة هذه الأجيال ، وسيبقى مالك حياً بعلمه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .



الإمام الشافعى

لما كان الشافعى رضى الله عنه كثير التجول وصادف أن مات بمصر تنازعه الناس فكل قطر يدعى أنه من أبنائه . والحقيقة أن الشافعى حجازى قرشى ، صحب أبوه أمه وهى حامل به فى بعض أسفاره فوُلد بغزة من أرض الشام وما لبث أن توفى أبوه فعادت به أمه إلى مكة مما يدل على أن موطن أسرته مكة . فلما ترعرع ذهب إلى هذيل طلباً لتقوية لسانه على النطق باللغة العربية الفصحى وكانت هذيل تتكلم بها دون أن تلحن فيها ، وما زال فيهم بقية إلى يومنا هذا يتكلمون باللغة العربية الفصحى لولا ما يتخللها من لهجة بدوية تجعل فهمها عسيراً على المتحضرين من أهالى مكة إلا من يحتك بهم فى المعاملة حين يهبطون مكة ليمتاروا منها .

وقد اكتسب الشافعى من مقامه بين قبائل هذيل عذوبة فى اللفظ وفصاحة فى التعبير فقال الشعر وأحسن البيان . وكان يجلس مع عشيرته فى الأبطح — حيث كان منزله — ويتحدث إليهم ، فأعجب أحدهم بفصاحته وأشار عليه أن يضيف إلى ملكته البيانية فقهاً فى الدين فسأل عمن يصلح أن يؤخذ عليه الفقه فدُلّ على مالك بالمدينة . ولما كان الشافعى فقيراً ليس لديه ما يمكنه من السفر ذهب إلى طوىً . فوجد قافلة تزمع السفر إلى المدينة فعرض نفسه على أصحابها فحمله أحد المسافرين على بعير له حتى بلغ المدينة واتصل بمالك .

سقنا هذا للدلالة على حجازية الشافعى أولاً ومكيته ثانياً رداً لمن عساه أن يدعيه أو ينسبه لقطر آخر غير القطر الحجازى . نعم ذهب الشافعى إلى اليمن والعراق وتنقل بين القرى والأمصار طويلاً ثم ألقى عصا التسيار فى مصر وبها توفى . وما كانت كل تلك الأسفار إلا طلباً للعلم وشغفاً بأهله وحباً فى الاستزادة منه والتوسع فيه والاطلاع على ما لم يكن فى وسعه الاطلاع عليه وهو مقيم ببلده قابع فى موطنه . وقد أثرت هذه الأسفار فى تكوين عقلية الإمام الشافعى وساعده ذكاؤه النادر على صهر تلك العلوم المتنوعة والأقاويل المختلفة التى سمعها من علماء الأقطار الإسلامية فى بوتقة عقله وإبرازها إبرازاً جميلاً منسقاً واستطاع أن يختط لنفسه طريقة فنية — لم يسبقه أحد من علماء زمانه إلى اكتشافها — فاعتمد عليها فى نشر مذهبه وبرهن بذلك على استقلاله فى الفتوى عمن سواه وقد رأى الناس أن طريقته

التى وفق لاكتشافها تصلح أن تكون ميزاناً عاماً توزن بها النصوص الشرعية لتمييز قويها من ضعيفها فاتبعوها وزادوا فيها كما سيأتى . وهذا سر خلوده وعظمته وقد أدهش الشافعى غيره بنبوغه وعبقريته واعترفوا له بالفضل عليهم يقول ابن هشام : « ما ظننت أن الله عز وجل خلق خلقاً مثل هذا الإنسان » وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعى عليه منة وما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالسته وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض » .

ولقد أجمع المؤرخون على « عذوبة منطقه وحسن بيانه وذكائه وقدرته الفائقة على الجدل وقوته فى التفكير ومهارته فى الاستنباط » قال الربيع : « كنا جلوساً فى حلقة الإمام الشافعى بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابى ثم قال « أين قمر هذه الحلقة وشمسها » قلنا توفى . قال رحمه الله وبكى بكاءً شديداً ، ثم قال رحمه الله وغفر له ، كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة ويسد من خصمه واضح المحجة ويغسل من العار وجوهاً مسودة ويوسع بالرأى أبواباً منسدة .

أنظر كيف وصل صيته إلى القفر بعد أن عم الأمصار فجرى الثناء عليه على ألسنة الأعراب أيضاً ويقول محمد بن الحكم : لزمت الشافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه ، كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح .

أما الطريقة الفنية التى اكتشفها الشافعى لوزن النصوص ومعرفتها تميز الصحيح والسقيم منها والتى لم يسبقه أحد من العلماء إلى اكتشافها فهى وضعه (علم الأصول) يقول الرازى : « واعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض ، وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطاطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ولكن ما كان عندهم قانون ملخص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى قلما أفلح ، فلما رأى أرسطاطاليس ذلك اعتزل الناس مدة مديدة واستخرج علم المنطق ووضع للخلق بسببه قانوناً كلياً يرجع إليه فى معرفة ترتيب الحدود والبراهين . وكذلك الشعر وكانو قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً وكان اعتمادهم على مجرد الطبع فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده فكذلك — ها هنا — الناس كانوا قبل الإمام الشافعى رضى الله عنه يتكلّمون فى مسائل الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها

وترجيحاتها فاستنبط الشافعى رضى الله عنه علم أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل . واعلم أن الشافعى رضى الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف الرسالة وفى واحد منهما علم كثير ، والناس وإن أطنبوا بعد ذلك فى علم أصول الفقه إلا أنهم كلهم عيال على الشافعى فيه لأنه هو الذى فتح هذا الباب والسبق لمن سبق .

هذا هو الشافعى وهذا مبلغ ما وصل إليه مركزه العلمى حتى بز علماء زمانه فهل يسعد الحجاز الحظ ونرى بين علمائنا من يعيد لنا ذكرى الشافعى فى أدبه ودأبه المتواصل فى العلم والإنتاج ؟ هذا ما نتوقع أن نراه قريباً لو كنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .



« عبد العزيز الكنانى »

كتبت مجلة المنهل فى عددها الأول الصادر فى شهر ذى الحجة سنة ٥٥ تحت عنوان عالم عبقرى من الحجاز فى صحيفة ١٢ وما بعدها . ترجمة وافية عن عبد العزيز الكنانى يحسن نقلها إلى هذا الكتاب كما جاءت دون تغيير ولا تبديل قالت المنهل :

ونعنى بهذا العالم الموهوب عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكنانى المولود بمكة فى القرن الثانى الهجرى والمتوفى سنة ٢٤٠ فهذا العالم الحجازى المحقق كان من أولئك العلماء الأفذاذ الذين جمعوا إلى سعة الاطلاع والتبحر فى الشريعة الإسلامية غزارة فى الأدب وفصاحة فى اللسان وقوة فى الملكة البيانية ونرى أن لسمو أدبه وتضلعه من اللغة العربية أثراً بالغاً فى تسنمه الذروة العليا من التفوق والنبوغ . فالعلم الغزير يمده أدب ناضج بتياره يكون له من قوة التأثير والروعة ما يجيئ دونه الوصف . ولعبد العزيز الكنانى فوق ذلك قريحة خصبة مواتية وذكاء فائق وبصيرة نافذة ورأى سديد موفق ومنطق جزل وبراعة ما فوقها براعة فى أساليب الحجاج والمناظرة .

« إلمامه بأحوال عصره »

وقبل أن ندخل في أصل الموضوع نرى لزاماً أن نمهد بمقدمة نستعرض فيها أحوال عصر هذا العالم الكبير لنعلم مدى تأثره بالوسط الذى عاش فيه .

كانت البيئة التى نشأ فيها عبد العزيز زاخرة بضروب الرقى الاجتماعى والفكرى والدينى والاقتصادى فقد تأصلت جذور الاسلام وانتشرت فروعه في مشارق الأرض ومغاربها . وامتد رواق الدولة العباسية في الآفاق واستراح الناس من القلاقل وهدأت الخواطر وانصرفت الأمة الى الاستثمار . إذاً فهذا العصر عصر استقرار بعد الاضطراب . لقد بلغت الفتوحات الاسلامية حدوداً نائية في نواحى المعمورة وأخمدت الثورات الداخلية والخارجية فلا غرو إذا توجهت الأمة والحكومة معاً إلى مناهل العلم والمعرفة .

هذا هارون الرشيد يتخذ مجلساً للعلماء والأدباء والشعراء ويصطفى منهم من يراه أهلا للاصطفاء وهذا ابنه وخليفته المأمون ينحو هذا النحو فيمعن فيه إمعاناً عظيماً . سوق العلم رابحة وسوق الأدب نافقة . المساجد عامرة بحلقات الدروس والقصور مملوءة بالمتذاكرين والبلاد تعج برواد العلم وعشاق المعرفة ينسلون إليها من كل صوب وحدب هيا بنا يا فلان لنرحل من أندلسنا أو مصرنا إلى المدينة المشرفة أو إلى مكة المعظمة لنغترف من بحر علومها الغزير . وهيا بنا يا زميلى إلى بغداد عاصمة الخلافة لنكتسب من معارفها الفياضة وهيا بنا يا أخى إلى اليمن الميمون أو إلى مصر الزاهرة أو الشام الناضرة . كل هذه الأقطار ميادين فسيحة مزدانة بأفنان المعرفة المثمرة على أختلاف ثمارها ، وجمال ألوانها . الحضارة العربية الاسلامية في أوجها الرفيع والدولة الفتية تدعمها بجهود جبارة . وتعطف على العاملين في إنمائها عطفاً ما مثله عطف . بدر الذهب تلقى بين أيديهم من كل صوب والجوائز والصلات لا تنقطع عنهم صباح مساء .

كان طبيعياً من كل هذا أن ينتج هذا الوسط الراقى فحولا في العلم والأدب . والاسلام دين يسر وتسامح وبحث وعلم وتفكير . في هذا الوسط المليىء بالنهضة الفكرية والحرية الفكرية نشأ عالمنا في كنف بلد الله الحرام وقبلة المسلمين ومجمع الحجاج الوافدين من نواحى الأرض ، نشأ نشأة علمية مزدهرة بالتقوى والصلاح فكان نجما من نجوم العلم التى سطعت في سماء الحجاز فازدان بطلوعه الحجاز وسار ذكره في الآفاق .

شخصيته ومواهبه

يروى لنا الكنانى عن نفسه أنه كان دميماً . ونحن لا يعنينا وصفه من هذه الناحية بقدر ما يعنينا أن نكشف عن مواهبه الفكرية ومزاياه العلمية : فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه . لقد أخذ الكنانى العلم عن كثير من جهابذة عصره ومنهم سفيان بن عيينة واختص من بينهم بأستاذه محمد بن إدريس الشافعى فقد لازمه مدة مديدة ، واشتهر بصحبته ، وخرج معه إلى اليمن . ومن هنا نستطيع أن نتوصل إلى الكشف عن سر نبوغه وأسباب عبقريته ، فالتلميذ سر أستاذه . وقد عرفنا عن الامام الشافعى أنه كان عذب المنطق حسن البيان ذكياً ذا قدرة فائقة على الجدل وقوة في التفكير ومهارة في الاستنباط وكان ذا ثقافة لغوية واسعة ، وثقافة أدبية عالية ، وثقافة في الحديث . رحل في طلبه إلى بلاد كثيرة منها اليمن

الذى رافقه في الرحلة إليه تلميذه المترجم .

وكان الشافعى ذا ثقافة في الفقه على نمط مدرسة الحجاز ، وثقافة في الرأي على نمط مدرسة العراق ، وثقافة اجتماعية من مشاهدته لحياة البدو في البادية فقد رحل في طلب الأدب إلى هذيل ومن مشاهدته الحضارة الأولية في الحجاز واليمن ومن مشاهدته الحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر . وهذا كله كان ذا صلة وثيقة بتكوين ثقافة عبد العزيز ، ومواهب عبد العزيز وتفكيره وعلمه :

ألم يلازم أستاذه مدة مديدة ؟ ألم يرحل معه في طلب العلم ؟ ألم يتفقه عليه ؟ فإذا كان الشافعى حسن البيان فليكن هكذا تلميذه البارع . وإذا كان ذا قوة على الجدل والتفكير فمن حق تلميذه أن يحوك على منواله . وإذا كان الشافعى ذا ثقافة واسعة في الدين والأدب واللغة فلينطبع عبد العزيز الكنانى بهذا الطابع الجميل من هذه الثقافات المحبوبة . هذا إجمال سنعنى فيما بعد بتفصيله وتحليله وعرضه عرضا شافيا على ضوء من كتابة الكنانى نفسه فخير ما يدل على حقيقة المرء آثاره .

ذكر الرواة أن للكنانى مصنفات عديدة منها كتابه (الحيدة) الذي هو خلاصة وافية للمناظرة الهائلة التى جرت بينه وبين بشر المريسى بشأن خلق القرآن في بغداد بحضرة الخليفة المأمون وبرئاسته وتحكيمه ، ويلوح لنا من دراسة هذا الكتاب الضئيل الحجم الغزير العلم أنه إنما أملاه صاحبه إملاء في بلده مكة وذلك بعد أن أذن الله بعودته من بغداد منصوراً .

وإن هذا الكتاب ليعلن عن مقدرة صاحبه البيانية ومقدرته الكلامية ومقدرته العلمية واللغوية والأدبية ، هو دائرة معارف إسلامية مختصرة للعصر الذي ألف فيه ، وهو كشّاف وضاء لسمو العقلية العربية الخالصة ، ومواهب العقلية الحجازية الصافية هو عنوان البطولة العلمية الخالدة . ولقد وصف لنا الشيء الكثير مما وقع تحت بصره من أساليب الادارة في العصر العباسي وأبان عن مناظر مجالس المناظرات في بلاط المأمون وفي هذا الكتاب عرض لنا الكنانى قصة مناظرته مع بشر المريسى عرضا بليغاً لما أنه دخل إلى قصر الخلافة خائفاً يترقب الموت من كل مكان ، وخرج منه منتصراً طافح الجبين بالبشر والسرور . يالك من مناظر محقق ، وعلامة عبقرى . ها هو الكنانى يلعب ببشر في معرض المناظرة المعقودة على مسمع من الخليفة العظيم الرهيب . وها هو يجندله مراراً ويهزمه تكراراً ، ويعصف بأقواله عصف الرياح المرسلة ليابس الأشجار . وها هو يلجمه إلجاماً ، ويفحمه إفحاماً .

لقد ادعى المريسى أن جعل في قوله تعالى « جعلناه قرآنا عربيا » وفي سائر القرآن هي بمعنى (خلق) فرد عليه الكنانى رداً علمياً لغوياً رائعاً وأدحض حجته ، وأزهق فكرته مستشهداً بهذه

الآيات : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » ، « ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم » ، « ويجعلون لله البنات سبحانه » فلو كانت جعل في هذه الآيات بمعنى خلق كما زعم بشر لكان المعنى : وقد خلقتم الله ، ولا تخلقوا الله ، ويخلقون لله البنات ، وهو معنى في غاية البطلان ولا يسع أحدا حتى بشر إقراره . ها هو بشر ينهزم أشنع هزيمة . وها هو المأمون يسجل عليه هذا الانكسار كما يسجل لخصمه هذا الانتصار .

ويتمادى الكناني في تدليله وتحليله لمادة (جعل) ومعانيها اللغوية فيفيدنا بأن جعل في القرآن على معنيين : الخلق والتصيير ، فجعل بمعنى الخلق لا تتطلب إلا مفعولاً واحداً وهي في هذا نظير مرادفتها (خلق) ويستشهد على ذلك بقوله تعالى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » و « وجعل لكم من أنفسكم أزواجا » أي خلق لكم السمع وخلق لكم من انفسكم أزواجاً . أما جعل ذات معنى التصيير فتطلب مفعولين اثنين شبيهة مرادفتها (صير) ويستدل على هذا بالقرآن أيضاً : « إنا جعلناه قرآنا عربياً » ، « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » ، « وجاعلوه من المرسلين » ، « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » أي إنا صيرناه قرآنا عربياًويا داود إنا صيرناك خليفة ، ومصيروه من المرسلين ، وصيرناه دكا . هنا ينقطع بشر وتسود الدنيا في وجهه ، فقد كان الخليفة في كفته على خط مستقيم ، وها هو ينقلب عليه بخط مستقيم إذ أبان له جهله واتضح له أنه مكابر ويسلك سبيل الحيدة عن الجواب كلما ألجأه عبد العزيز في المناظرة إلى الاعتراف بالحق الصراح . وها هو المأمون يقبل بكليته على الكناني ويستحسن آراءه ويقابلها بالتسليم التام والقبول والامتنان لقد هدم الكناني نظريات مناضله في خلق القرآن من شتى الوجوه ؛ من الوجهة الشرعية والوجهة اللغوية حتى من الوجهة المنطقية التى كان يعتز بها بشر لما كان عبد العزيز يناظره ويدمغ بنصوص القرآن العزيز .

لقد أثبت عبد العزيز إثباتا حقاً أن القرآن كلام الله غير مخلوق وباء بشر بالفشل التام وعاد عبد العزيز يحمل ألوية الظفر التام . هذا ظفر تاريخى للحجاز على بغداد فلتسجله يا تاريخ الحجاز على صفحات من نور . هذه بغداد تحتفل بهذا الضيف الحجازى معترفة بمقدرته ورجاحة عقله مطأطئة الرأس أمام نبوغه وعبقريته خاشعة أمام بطولته وبراعته . لقد دخلها بائسا يائساً مستقتلا في سبيل إعلان الحق . ها هى تنبهر من مواهبه وتبتهج بإكرامه وتقديره . وها هو الخليفة يشاركها في هذا التقدير فيمنحه جائزة سنية هي عنوان التقدير والاعجاب ورمز الاكبار ، وفي هذا يروى لنا الكنانى ما نصه .

« فقال المأمون أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم فحملت بين يدى وانصرفت من مجلسه على أحسن حال وأجملها فلله الحمد على تسديده وتوفيقه ، وسر المسلمون جميعاً بما وهبه الله لهم من إظهار الحق وقمع الباطل ، وانكشف عن قلوبهم ما كان يكتنفها من الغم والحزن ، وجعل الناس يجيئون إلىّ أفواجاً ، حتى أغلقت بابى واحتجبت منهم خوفاً على نفسى وعليهم من مكروه يلحقنا » .



« نعيمان بن عمرو الأنصارى[1] »

الانسان مجبول بفطرته على الترويح عن نفسه من عناء ما يتحمله من السعى وراء موجبات الحياة ومهامها ، وكما أن للجو والمناخ تأثيراً عظيما في تكوين الانسان الجسمانى والعقلى ، كذلك للجو والمناخ تأثير عظيم في تكوين الأمزجة والأذواق .

فإذا منحت الطبيعة قطراً من الأقطار من مباهجها ما يروح بها عن أنفس سكانه كان سكان ذلك القطر — كما يبدو لى — أقل فكاهة وأضعف ظرفاً من غيرهم ممن بخلت عليهم الطبيعة فلم تمنحهم من مبدعاتها ما يكفل لهم الترويح عن أنفسهم بالوجه الأكمل ، وذلك بحكم طبيعة الاقليم فقد يكتفى الأولون في الترويح عن أنفسهم بما لديهم من جمال الطبيعة فيقضون أوقات فراغهم ويذهبون هموم أنفسهم بالتأمل في محاسنها ويستغنون بذلك عن سواه ، ويحس الآخرون بالنقص في ترويح أنفسهم ، فيسعون للاستعاضة عما أحدثته طبيعة إقليمهم من عدم توفر الجمال الطبيعى فيه فيجتهدون في أن يضفوا على حياتهم من جمال نفوسهم ما يجعلها أخف عبئا وأكثر مرحا من حياة غيرهم ، فيرسلون الفكاهات العذبة والمداعبات البريئة والنكات البارعة في مجالسهم ومنتدياتهم ، وبذلك يكونون أكثر ظرفا من سواهم .

* * * *

... وقد يؤدى جدب الاقليم وقسوة الطبيعة فيه الى إمعان سكانه في المجون للترويح عن أنفسهم حتى يؤدى بهم ذلك إلى الخفة والطيش ، وتستولى هاتان الخصلتان على أخلاق سكان ذلك الاقليم فيذهب اتزانهم ، ويكونون إلى البلادة والنزق أقرب منهم إلى الفطنة والظرف .

---

(١) لم ألتزم في هذا المؤلف ترتيباً ، فكلما وقع في نفسي اسم خالد من رجالات الحجاز كتبت عنه وأثبته .

والقطر الحجازي لم تمنحه الطبيعة من سحرها وجمالها ما يدعو إلى ثقل الروح ، ولم تقس عليه قسوة تؤدى به إلى الخفة والطيش ، وقد عمل هذا الاعتدال عمله في أمزجة الحجازيين وأذواقهم ؛ وكان من تأثيره أن صفت نفوسهم ولطفت أرواحهم ، وأرهفت إحساساتهم ، واشتعلت جذوة الذكاء فيهم ؛ فجاءوا كبار الأحلام ، رقيقى الحاشية ؛ وجاءت نفوسهم أشوق النفوس إلى الحياة السامية من جميع نواحيها .

فبينما نراهم يطلبون الآخرة ويعملون لها فيزهدون في نعيم الحياة ويقنعون بما قسم لهم من الرزق ، نجدهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا فينفرون خفافاً وثقالاً لفتح البلاد وغزو الأمصار ، ويبدون من المهارة في سياسة الشعوب وتصريف الأمور ما ينالون به الاعجاب والاكبار ، وهم في كل ذلك يخلطون حياتهم الجدية بشيء من الهزل مما يجعل حياتهم مرحة نشيطة ويزدادون بذلك مثابرة على عظائم الأمور .

لذلك لا نرى موقفاً من مواقفهم الرهيبة إلا وتخللته دعابة كدعابة عمرو بن العاص في وقعة صفين حينما طلب علي من معاوية المبارزة ، فقال عمرو لمعاوية : لقد أنصفك أبو الحسن ، فأجابه معاوية : لقد نفست عليّ الخلافة يا عمرو ، والله لا يبارزه أحد غيرك ، فبرز عمرو لعلي وهو عالم أنه ما من أحد يبارز علياً إلا غلبه ، فلما تلاقيا انهزم عمرو واستلقى على ظهره وتعمد كشف عورته فتركه علي وضحك الناس ونجا عمرو . وقلما تجد عالماً من علمائهم ، أو ناسكا من نساكهم ، أو حاكماً ، أو أميراً ، أو ملكاً إلا وجدت في أقواله وأفعاله ما يدل على خفة روحه وظرفه الطبيعي المتغلغل في صميمه . هذا عبد الله بن عمر بن الخطاب كان عابداً زاهداً ناسكاً مشهوداً له بالفضل والحجا ، له غزل يقطر رقة وعذوبة مما يدل على جمال نفسه وظرف شخصيته ، وهذا أبوه عمر بن الخطاب الرجل العظيم كان يتغنى بالشعر ويقول « إذا خلونا صبونا » بل هذا رسول الله ﷺ أكمل الناس وأعقلهم كان يمزح مع أصحابه ولا يقول إلا حقاً ، وكثير من أجلاء الصحابة من الأنصار والمهاجرين لهم من الأقوال والأفعال ما يدل على خفة أرواحهم وظرفهم البالغ مع ما لهم من متانة الأخلاق ، وعلوّ الهمة ، وقوة العقل ؛ صحيح أن لكل أمة ظرفا قائما بنفسه يتناسب ومزاجها ولكنه ناشيء من التعليم والتقليد .

أما الظرف الحجازى فهو ظرف طبيعى جاء مع أصل الخلقة ومن تأثير الجو والمناخ وطبيعة الاقليم فكما أن العربي الصميم كان يقول الشعر المقفى الموزون بسليقته ، كذلك أتى الحجازى ظريفاً

بفطرته ؛ يتضح لك ذلك من المشاهدة ، فإنك ترى من أعراب الحجاز ظرفا لم تتوقع أن تراه منهم مع بعدهم عن كل ما يمت إلى الحضارة والعلم بصلة ، ولا ترى في فلاحى الأمم الأخرى وبدوها ما ينم عن ظرف متأصل في نفوسهم مع قربهم من أماكن اللهو المنظم في عواصم بلادهم المتحضرة ؛ وقد سبق ان قلنا أن لكل أمة ظرفا وظرف كل أمة يتفق ومزاجها بحسب اختلاف الأذواق كما ترى ذلك بينا في اختلاف مشارب أهل المدينة الواحدة ، فلكل جماعة ظرف يختلف عن ظرف الجماعة الأخرى ، ولكل فكاهة تمثل مستواه الخلقى ، ومبلغ حظه من الآداب العامة .

ونعود إلى الظرف الحجازى فنقول إنه ظرف غريزى جاء مع أصل الخلقة — كما بينا — فحياتهم لا تخلو في جميع أدوارها من كثرة الظرفاء وجمهرة المتظرفين حتى ملئت كتب التاريخ الحجازى بما يضحك الثكلى من أقوالهم وأفعالهم ، واشتهر كل عصر بأشخاص نبغوا في الظرف والفكاهة ، وقد كان عصر النبي ﷺ يزخر بالظرفاء والمضحكين رجالاً ونساء ، وكان عليه السلام يأنس بهم ويلاطفهم ويبتسم لما يبدو منهم من الأفعال المثيرة للضحك ، وما كان ينكر عليهم شيئاً من ذلك . ومن أشهر ظرفاء الصحابة رضوان الله عليهم نعيمان[1] بن عمرو بن رفاعة الأنصارى ، وكان ممن شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها ، وكان كثير المزاح يضحك النبي ﷺ من مزاحه . خرج أبوبكر إلى الشام ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة وكلاهما بدرى وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان ، فقال : أطعمنى ، فقال لا . حتى يجيء ابوبكر ، وكان نعيمان رجلاً مضحاكاً فقال لأغيظنك فجاء إلى أناس جلبوا أظهراً ، فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربياً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه ، لا تفسدوا على غلامى ، فقالوا : بلى ، بل نبتاعه منك بعشر قلائص فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال دونكم هو هذا فجاء القوم فقالوا قم قد اشتريناك ، فقال سويبط هو كذاب أنا رجل حر ، فقالوا قد أخبرنا خبرك فطرحوا الحبل في رقبته وذهبوا به ، فجاء أبوبكر فأخبر ، فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص وأخذوه ، فلما عادوا إلى النبي ﷺ وأخبروه الخبر ضحك هو وأصحابه . وروى عياد بن صعب من طريق ربيعة بن عثمان قال : أتى اعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه ، فقال أصحاب النبي ﷺ لنعيمان لو نحرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا إلى اللحم ويغرم رسول الله ﷺ ثمنها ، فنحرها نعيمان ثم خرج الأعرابى فرأى راحلته ، فصاح واعقراه يا محمد ، فخرج النبي ﷺ ،

(١) من هنا إلى آخر المقال منقول من التراتيب الإدارية للشيخ عبد الكبير الكتانى جـ ٢ ص ٣٥٦ وما بعدها .

فقال : من فعل هذا ، فقالوا : نعيمان فاتبعه فوجدوه في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب مستخفيا ، فأشار إليه رجل ورفع صوته ويقول : ما رأيته يا رسول الله وأشار بإصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله ﷺ ، وقال له : ما حملك على هذا ، قال : الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمرونى ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح وجهه ويضحك ، وغرم ثمنها .

وكان لا يدخل نعيمان المدينة إلا اشترى منها ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : هذا هدية لك فإذا جاء صاحبه يطالب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبي ﷺ وقال : أعط هذا ثمن متاعه : فيقول : أو لم تهده لى ، فيقول والله إنه لم يكن عندى ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . وقال الزبير حدثنى عمى عن جدى قال : كان مخرمة بن نوفل قد بلغ مائة سنة وخمس عشرة سنة فقام في المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس المسجد المسجد ، فأخذه نعيمان بيده وتنحى به ثم أجلسه ناحية أخرى من المسجد ، وقال له : بل ها هنا قال : فصاح به الناس ، فقال : ويحكم ومن أتى به إلى هذا الموضع ، فقالوا نعيمان ، فقال : أما إن لله علىّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاى هذه ضربة تبلغ به ما بلغت ، فبلغ ذلك نعيمان ، فمكث ما شاء الله ، ثم رآه يوماً وعثمان قائم يصلى في ناحية المسجد ، فقال لمخرمة : هل لك في نعيمان ، قال : نعم ، فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت ، فقال : دونك هذا نعيمان ، فجمع يده بعصاه وضرب عثمان فشجه فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين .

ونزل أصحاب رسول الله مرة بماء وكان نعيمان بن عمرو يقول لأهل الماء يكون كذا وكذا فيأتونه باللبن والطعام فيرسله إلى أصحابه فبلغ أبا بكر خبره ، فقال : أرانى آكل من كهانة نعيمان منذ اليوم واستقاء ما في بطنه .



« عمر بن أبى ربيعة »[1]

إن أقرب حياة تنطبق وحياة هذا الشاعر الغزل « عمر بن أبى ربيعة » حياة الطائر الغريد الذى يعبث بترجيعاته اللذيذة وهو ينتقل بين أفنان الرياض النضرة ويرتشف من سلافة الثمار الحالية ، ويستنشق من عبير الورود العاطرة النادية ، نشوة في النفس فتغاريده تأتى صورة لما ينطبع في نفسه من جمال الجنان الفيحاء التى شاء أن يفنى غراماً بالتنقل بينها . فيستهوى بصدحه النفوس فتهفو خلفه إلى حيث يقودها في نشوة تدعها لا تفكر إلا فيما يثيره فيها من مختلف الاحساسات العاطفية التى تعصف بالقوى العاقلة عصفاً لا تملك معه الاحتفاظ باتزانها فتستسلم له يعبث بها كيفما شاء له الهوى .

وهكذا كان شأن عمر بن ربيعة : فما كانت غزلياته إلا صورة لما ينطبع في نفسه من مرائى الجمال الانساني الفاتن الذي شاء عمر أن يكرس حياته على تتبعه فيختلب الألباب بها اختلاباً . وحقاً ان الانسان ليأنس عندما يتلو شعر عمر بنشوة من السرور تدب إلى نفسه كما تدب النشوة إلى رؤوس المخمورين في ساعات الأنس ولقد قال الفرزدق حينما سمع نسيب عمر : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت على الديار ووقع هذا عليه »[2] . وسئل حماد الراوية عن شعر عمر فقال « ذاك الفستق المقشر »[3] وذلك لما أثاره شعر عمر في نفسيهما من الاحساسات العاطفية التى ما استطاع أن يحرك كوامنها فيهما غير عمر بشعره الرائع الرقيق . ولقد اهتدى عمر إلى نغمة شعرية لم يهتد إليها الشعراء من قبل فضمنها غزلياته فأكسبت شعره رنة موسيقية رائعة وصل بها إلى نياط القلوب وجعلها لا تملك إلا أن تهفو حوله وتحنو عليه . يقول أحد معاصريه بعد سماعه هذه القطعة من شعر عمر[4] :

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن أبى ربيعة واسم ربيعة حذيفة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر .

(٢) ، (٣) ، (٤) الأغانى . جـ ٧ ص ٧٥

يا ليتنى قد أجزت الحبل نحوكم   حبل المعرف أو جاوزت ذا عشر
إن الثواء بأرض لا أراك بها   فاستيقنيه ثواء حق ذى كدر
وما مللت ولكن زاد حبكم   وما ذكرتك إلا ظلت كالسدر
ولا جذلت بشيء كان بعدكمو   ولا منحت سواك الحب من بشر
أذرى الدموع كذى سقم يخامره   وما يخامرنى سقم سوى الذكر
كم قد ذكرتك لو أجدى تذكركم   يا أشبه الناس كل الناس بالقمر

« إن لشعر عمر بن أبي ربيعة لموقعاً في القلب ومخالطة للنفس ليسا لغيره ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً » .

ولما سمع منه الفرزدق قصيدته التى يقول فيها :

فلما التقينا واطمْأنت بنا النوى   وغيب عنا من نخاف ونشفق
فقمن لكى يخليننا فترقرقت   مدامع عينيها وظلت تدفق
وقالت أما ترحمننى لا تدعننى   لدى غزل جم الصبابة يخرق
فقلن اسكتى عنا فلست مطاعة   وخلك منا فاعلمى بك أرفق

ما تمالك نفسه أن صاح « أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس ، لا يحسن والله الشعراء أن يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية » وجاءه جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة ليفاخره ــ بالشعر الغزلى طبعاً ــ فأنشده عمر قصيدته التى منها قوله :

فسلمت واستأنست خيفة أن يرى   عدو مقامى أو يرى كاشح فعلى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما   معى تكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب   ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا   وهن طبيبات بحالة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا   نطف ساعة فى برد ذى ليل وفي سهل
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثى   أتيناك وانسبن انسياب مها الرمل

فقمن وقد أفهمن ذا اللب إنما أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

« فقال هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالى والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد وقام مشمراً » .

ولعل هذا هو السر في تهافت ربات الحجال على عمر وتعرضهن له واشتياقهن لمحادثته ومجالسته . ولا كبير لوم عليهن إذا ما رأينا منهن من يتمنين أن يتغزل بهن عمر فقد رأيناه يستنزل بشعره خلفاء بنى أمية من كبريائهم ويستهويهم بفنه فيودون لو يمدحهم عمر فهذا سليمان بن عبد الملك يقول له « ما يمنعك من مدحنا » فيجيبه بقوله « إنى لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء » . فما بالك برقيقات الحس وهن يسمعن من عمر مثل هذه الأغرودة التى يوقعها على أوتار قلوبهن اللطيفة توقيعاً .

تصابى القلب وادكرا صباه ولم يكن ظهرا
لزينب إذ تجد لنا صفاء لم يكن كدرا
أليست بالتى قالت لمولاة لها ظهرا
أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا خطرا
لقد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذرا
وقولى في ملاطفة لزينب نولى عمرا
فهزت رأسها عجباً وقالت من بذا أمرا
أهذا سحرك النسوان قد خبرننى الخبرا

وقوله :

ما زال طرفى يحار إذ برزت حتى رأيت النقصان في بصرى
أبصرتها ليلة ونسوتها يمشين بين المقام والحجر
ما إن طمعنا بها ولا طمعت حتى التقينا ليلا على قدر
بيضاً حساناً خرائداً قطفا يمشين هوناً كمشية البقر
قد فزن بالحسن والجمال معاً وفزن رسلاً بالدل والخفر

ينصتن يوماً لها إذا نطقت كيمـــا يشرفنها على الـــبشر
قالت لتــرب لها تحدثهـــا لنفسدن الطواف في عمـــر
قومـــى تصدى له ليعرفنـــا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزتـــه فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى
من يسق بعد المنام ريقتها يسقى بمسك وبـــارد خصر

ألا يرى معى القارىء أن عمر ابتكر في غزلياته طريقة الشعر القصصى فهو في كل شعره يقص ما قال لحبيبته وما قالت له وما تحدث به أترابها مما لم يكن متداولا في شعر الشعراء إلا ما كان في شعر امرىء القيس وربما كانت هذه النغمة الساحرة ، وعلى كل فإن من كانت تجرى على لسانه مثل هذه الأبيات الرقيقة والتى كان ينفثها في وجوه الغوانى كما ينفث الساحر الرقى فإن النساء لا يملكن إلا أن يقعن عليه كما يقع الفراش على الزهرة المتفتحة .

* * * *

وكأن عمر لم يكن في تكوينه إلا من عواطف بحتة وشعور مستفيض فهو يرينا منه دائما عاطفة متأججة لا يخمد لها أوار ، وشاعرية فياضة لا ينضب لها معين وكان في جميع أدوار حياته كبلبل الروض الذى لا ينتقل من دوحة إلا ليرف على بانة ، ولا يهبط من فنن إلا ليترع من جدول ، ولا يغادر غصناً إلا ليحوم على زهرة ، ولا يكاد يثبت في مكان حتى يثبت إلى غيره . وهو في كل ذلك يرسل أشعاره فتأتى من أحسن الأغاريد ، فهو يصور لك مواقع الفتنة في الجمال الانساني المخبوء والذى ما حظى باكتشافه من تحت طيات الخمر ومن وراء زوايا الخدور أحد مثل عمر وكان يبرز وصف تلك المخبآت إبرازاً شعرياً رائعاً على طريقته الشائعة البديعة فيستهوى الشيب قبل الشبان لتتبع خطاه واستمع لعمر كيف يقص عليك هذه القصة الشعرية اللذيذة :

يا خلــيلى شفنـــى الذكـــر وحمول الحى إذ صدروا
ضربـــوا حمر القبـــاب لها وأديـــرت حولها الحجـــر
سلكـــوا شعب النقـــاب بها زمـــر تحتثهـــا زمـــر

وطــــرقت الحي مكـــــتتما ومعـــــى غضب به أثـــــر
وأخ لم أخش نبوتـــــــــه بنواحـــــى أمرهـــــم خبر
فإذا ريم على فرش في حجـــال الخز مختـــــدر
حولــه الأحــــراس ترقبـــــه نوم من طول ما سهــــروا
شبـــه القـــتلى ومـــا قتلـــوا ذاك إلا أنهم سمروا
فدعت بالوبـــــــل ثم دعت خرة من شأنها الخفـــــــر
ثم قالت للتـــــى معهـــــا ويح نفسى قد أتى عمـــــر
ما له قد جاء يطرقنـــــــا ويـــرى الأعـــداء قد حضروا
لشقـــــائى كان علقنـــــا ولحينـــى ساقـــه القـــــدر
قلت عرضى دون عرضكـــم ولمن ناواكم الحجــــــــــــر

هل تجد أيها القارىء الكريم مثل هذا الاحساس الغريب الذى تبعثه هذه القصة الشعرية من تصوير عمر في النفس في شعر غيره ؟ ولهذه الميزة التى امتاز بها شعر عمر كان شعره مادة قوية للفن الغنائى الذى ازدهر في الحجاز في ذلك العصر فلقد كان جل غناء معبد وابن سريج وابن عائشة وغيرهم من كبار المطربين والمطربات في مكة والمدينة من غزليات عمر .

ومن اكتشافات عمر الرائعة لطبيعة المرأة قوله :

قالت وعيش أخى وحرمة والدى لانبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلـــمت أن يمينها لم تحرج
فتنـاولت رأسى لتعـــرف مسه بمخضب الأطـراف غير مشنـج
فلثـمت فاهـا آخـذاً بقـــرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وقد يعف عمر فيقول :

طال ليلى واعتادنى اليوم سقم وأصابت مقاتـل القـلب نعـم
حرة الوجـــه والشمائـــل والجو هر تكليمهـا لمن نال غنـــم
هكـذا وصف ما بدا لى منها ليس لى بالذى تغـيب علـم

إن تجودى أو تبخلى فبحمد لست يا نعم فيهما من يذم

والمتتبع لشعر عمر لا يخرج من تلاوته إلا وقد اختلطت أجراسه الساحرة بشغاف قلبه وربما رأى طيف عمر اللطيف يطل عليه من غياهبه فيمتلك عليه عنانه ويقوده فلا يتركه حتى يورده مسارح أنسه وملاعب صبوته في رياض الطائف ، أو في شعاب مكة ، أو في عقيق المدينة ، أو عند وادى المغمس ، أو بوادى قرن المشهور بوادى محرم اليوم حيث الوجوه الصباح ، والعيون الفواتر .

والمتتبع لشعر عمر لا يرى ما يدل على فتور في عاطفته أو نضوب في شاعريته . على كثرة ما قال في كثرة من رأى ممن وقف نفسه على تتبعهن .

ثم هو في شيخوخته لا يقل عاطفة عما كان عليه وهو في عنفوان شبابه وميعة فتوته .

وبالجملة فإن من أراد ان يتصور الصبوة والشعر ، والرقة والظرف ، والجاذبية والبشر في شخص ، فليتصورها في شخص عمر فما كان يرحمه الله إلا معنى من معانى السرور المحض مشى فترة من الزمن بين الأحياء ليلفت أنظارهم إلى مباهج الحياة . فلقد عنى عمر نفسه بتتبع الجمال أيًا كان وحيثما وجد .. يقول مصعب ابن عروة بن الزبير : خرجت أنا وأخى عثمان إلى مكة حاجين أو معتمرين فلما طفنا بالبيت مضينا إلى الحجر نصلى فيه فإذا شيخ قد فرج بينى وبين أخى فأوسعنا له فلما قضى صلاته أقبل علينا فقال من أنتما فأخبرناه فرحب بنا وقال يا ابنى إنى موكل بالجمال أتبعه وإنى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه فسألنا عنه فإذا هو عمر بن أبى ربيعة .

ويقول الكلبى : إن عمر بن أبى ربيعة كان يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال : أين زين المواكب — يعنى ابنه محمداً — وكان يسمى بذلك لجماله ، فقال له عروة هو أمامك ، فركض يطلبه . فقال له عروة : يا أبا الخطاب أولسنا أكفاء كراماً لمحادثتك ؟ فقال : بلى بأبى أنت وأمى ، ولكنى مغرى بهذا الجمال أتبعه حيث كان ثم التفت إليه وقال :

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لى فيه إلا لذة النظر

ثم مضى حتى لحقه فسار معه وجعل عروة يضحك تعجباً منه .

* * * *

ولد عمر بالمدينة المنورة سنة ٢٣هـ ومات سنة ٩٣هـ وإن كان البلى قد أودى بجثمانه ، فإن غزلياته ما زالت ولن تزال محتفظة برونقها وفتنتها كيوم نفثها من فيه ، لم يذهب بطلاوتها ورونقها كر الغداة ولا مر العشّى ولم تزل أشعاره رغم القدم كبسمة مغرية من غانية مرحة تخفق القلوب لنضرتها ، وتنتعش النفوس لبهجتها ، ويزهو بها تاريخ الحجاز الشعرى وحق لعمر ابن أبى ربيعة أن يكون في مقدمة الشعراء الحجازيين الذين لم يفض شعورهم إلا للجمال وما طلبوا بشعرهم غير الفن إرضاء للفن . فكتب له بذلك الخلود يغفر الله له ونسأله أن يسبغ عليه من شآبيب رحمته ما هو في أمس الحاجة اليه .





المجتمع الحجــازى

بين اليوم والأمس

سعيد بن محمد بن أبى زيد — أبناء دينار — محمد بن مسلم بن جماز

لقد كان للآباء الأمجاد والأسلاف الكرام ، أولئك الذين كان يتألف منهم المجتمع الحجازى في عصوره الغابرة من متانة الأخلاق ، وحميد الصفات ، وكريم السجايا وشريفها ما يدع الانسان يعجب مما وصلت إليه حالتنا اليوم من هذا الانقلاب الخلقى والنفسانى المضاد لما كانت عليه حالة الآباء الأوَل .

فحالة مجتمعنا لا تتفق بوجه من الوجوه مع ما كان عليه الجمهور الحجازى السابق حتى كأننا لا نمت إلى أسلافنا بسبب من الأسباب ، فلقد صار البون بيننا وبينهم كالبون بين الأرض والسماء ، وما أدرى ماذا حدث في تكويننا ؟ أو ماذا طرأ علينا من التأثيرات حتى جعل شقة الخلاف تبعد هذا البعد البين بين الآباء والأبناء،فعاداتنا اليوم لا تتفق وعاداتهم بالأمس ، وأخلاقنا ليست كأخلاقهم ، ونفوسنا تأبى الاقتراب من نفوسهم ، وتقاليدنا تتنافى مع تقاليدهم وما كانوا عليه . اللهم إلا ما كان من أمر الدين وتقاليده التى لا يمكن أن تمتد إليها يد الزمان فتغير أو تبدل منه شيئا ، حتى إنهم لو بعثوا لأنكروا علينا كثيراً من أعمالنا ولساءهم ما وصلت اليه حالتنا اليوم ولاستوحشوا من المقام بيننا ولولوا منا فراراً ولملئوا منا رعباً ولهرولوا لائذين إلى قبورهم مفضلين البقاء تحت أطباقها على العيش معنا تحت أجواز الفضاء .

فلقد كانوا يوم كانت الحياة تدب في أوصالهم يتحرجون أن يدخلوا في أفواههم لقمة دون أن

يتيقنوا حلها ، ويحرصون على ألّا يكون في جيوبهم درهم إلا عن طريق الاكتساب الشريف الطيب ، وكانوا لا ينفقون إلا بقدر ما يكتسبون ولا يكتسبون إلا بقدر ما ينفقون ، ويأنفون أن يكون لهم عمل من قِبَل السلطان ، ويتعففون عن قبول الصدقات ، ويروضون أنفسهم على الرضا بما قسم لهم من نصيب الحياة فلا يتأففون ولا يتذمرون ، مع المحافظة على كرامتهم وعزة نفوسهم ، والتنمر لمن أراد أن يخدش كبرياءهم أو يمتهن كرامتهم ، أو يغض من مكانتهم أو يستخف بعقولهم .



« سعيد بن محمـد »

أين في مجتمعنا اليوم ؟ مثل سعيد بن محمد بن أبى زيد الذى يحدثنا عنه محمد بن عمر فيقول : « كان سعيد بن محمد رجلاً من أهل الدين والورع والفضل والعقل وكانت له أريضة سبخة تغل في السنة دينارين وكان يقتصد في ذلك ويجتزىء به ويغدو وجاريته فيلقط بلحات من أرضه ويرسل بها إلى أهله صبوراً على تلك الشدة لا يشكو من ذلك قليلاً ولا كثيراً ويُبعث إليه فيقول أنا بخير ويغضب على من يبعث إليه ويمتعض من ذلك امتعاضاً شديداً . أصون الناس لنفسه ، يخرج إلينا فيحدثنا في ثوبيه ذينك في الشتاء والصيف لا نراهما أبداً إلا نظيفين وكان يدعى إلى الوليمة فيجيبها ولا يأكل منها شيئاً ويدعو لأصحابها فيقال لِمَ لا تأكل يا ابا محمد من هذا ؟ قال أكره أن أعوِّد بطنى الطعام الطيب فلا يرضى بما أطعمه لا أريد أن أشره إليه ، ولما ولى عبد الرحمن بن أبى الزناد خراج المدينة أرسل إلى سعيد بن محمد بمائة دينار ، فقال والله لا أقبلها أبداً ولا هى من شأنى سبحان الله أما يستحى من هذا ؟ قال فأولاه ولاية قال لا أفعل فلم يزل يرسل إليه الرسل قال فجاء فقال عرفت أنك تريد أن تصنع إلىّ وإن من تمام صنيعتك أن تعفينى فإنى لا أريد وعندى بحمد الله غنى عنه ، فتركه وأعفاه .

إنها العفة تتجسم في شخص سعيد هذا ولعمر الله إنها صفة جديرة بأن يتخلق بها سكان الحرم وجيران الرسول في زمننا الذي نعيش فيه إذ لا أثر لهذه الصفة الجليلة بين أبناء هذا الجيل .

ما لنا اليوم نتكالب على الذهب والفضة ولا يهمنا في حياتنا إلا ان تحتوى جيوبنا وخزائننا على أكبر كمية من هذين المعدنين غير سائلين ولا متحرين في اكتسابهما شيئاً ، ولا نبالى من أى الطرق تأتينا فنلجها غير هيابين ولا مشفقين بما نبوء من الخسارة العظمى التى نمنى بها في ديننا وعزتنا ، لا ضمير يؤنبنا ولا رادع لنا من أنفسنا يزجرنا عن الانغماس في الطرق المعوجة الملتوية ما دمنا نؤمل من سلوكها الاكتساب أيًا كانت صفته ومهما كان نوعه ، يكون عند أحدنا من الأسباب المعاشية أشرفها وأزكاها تدر عليه من مواردها وأرباحها ما يغمره بخيراتها وربما كان فينا من يتمتع بثروة ضخمة وتجارة واسعة فلا يتعفف عن منازعة البؤساء في مهنهم ، ومشاركة الفقراء في صدقاتهم .

على هؤلاء أن يعيروا التاريخ التفاتة ليروا أسلافهم من الأغنياء ، وكيف كانوا يعرضون عن ممارسة الوظائف الحكومية فضلاً عن قبول الصدقات التى يأنف من قبولها كل من يشعر بالعزة بمعناها الصحيح .

إن هذه الطريق طريق الاكتساب من الصدقات ما أعدت إلا للعجزة وما عبدت إلا ليسلكها الذين لا حول لهم ولا قوة على الكفاح لنوال الرزق من طرقه المشروعة أما الذين يريدون الاحتفاظ بمكانتهم والارتفاع برجولتهم ولا يريدون أن تلوكهم الألسنة بما يندى له الجبين فهم يربأون بأنفسهم أن تستنيم للاكتساب من هذه الطريق السهلة ويترفعون بشخصياتهم أن توسم بميسم الخنوع والانكسار .



« أبنـــاء دينـــار »

كان داود وشميل ويحيى أبناء خالد بن دينار يزاولون التجارة وكان ولاؤهم لبنى العباس فلما أدال الله لمواليهم في الأرض وولى عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس المدينة بعث إليهم فعرض عليهم وظائف وأعمالا حكومية لولائهم له فقالوا : أصلح الله الأمير نحن قوم تجار ولا حاجة لنا في عمل السلطان فأعفنا .

ها هم أولاء عافت نفوسهم الوظائف حباً في العمل الحر الشريف ، وبرهنوا على اعتدادهم لأنفسهم في معالجة شؤون الحياة بعد الاعتماد على بارىء النسمات المتكفل بالأرزاق على عكس ما نراه اليوم من تهافت الشبان على الوظائف ، وإعراضهم عن مزاولة الأعمال الحرة التى ربما تعود عليهم بأفضل مما تعود عليهم بها حياة الوظيفة وعملها .

* * * *

فيا من سيتألف منكم المجتمع العربي الجديد في الغد القريب . أنتم يا ناشئة البلاد ، روضوا أنفسكم واحملوها على أن تكونوا أمثال بنى خالد بن دينار وسعيد بن أبى زيد ، واربأوا بأنفسكم أن تكونوا على غرار هؤلاء الذين ماتت ضمائرهم من الآباء ، ومن كان على شاكلتهم من الأقرباء . وبذلك تؤلفون مجتمعاً عربياً حجازياً كل أفراده أعزة أقوياء .



« محمد بن مسلم بن جماز »

ولأجل أن تعلموا ما كانت عليه حالة القوم وما آلت اليه حالتنا اليوم أسرد عليكم وصية محمد بن مسلم بن جماز ، فإنه لما حضرته الوفاة قال : « إنى كنت أسمع أهل الدار يشتكون من ميزاب لنا على طريقهم في الدار وأدركت آبائى في هذا المنزل وهذا الميزاب في موضعه فأردت أن أغيره إلى موضع آخر فلم أجد في الدار موضعاً يصلح أن يغيّر فيه وذهبت أريد النقلة فلم أقو عليها وخشيت أن أتحول ببنات أخى نسيئات ضعافا عورة . وقد مات أبوهن حديثاً فيضعن ، فأحب أن تكلموا أهل الدار في الميزاب أن يحللونى منه وإن كان في ذلك تباعة غداً ، وجارى هذا اسحاق بن شعيب قد أرسل إليّ في أن يفتح كوة في بيتى ليضيء له بيت مظلم ويرفع الكوة الى السماء حتى لا تكون عورة فأنعمت له فأحضروا آلته ثم ذكرت أن بنات أخى صبايا ولم آمن عليهن العورة فأبيت أن أفعل فتكلمونه أن يحللنى من قولى له : نعم ، ثم قولى : لا ؛ وهذه ثلاثة دراهم في رف صندوق منذ أكثر من ثلاثين سنة وكنت أعالج البز فلا أدرى هى لى أو هى وديعة أو قضانى غريم ؟ فتسألون عنها ثم تنفذون ما يأمرونكم فيها ؛ وقد كان آل فلان رهنوا عندى طستا على دينارين فأخبرت أن أهلنا أكلوا عليه مرة فتحللوا من صاحبها فإن فعل وإلا فردوا عليه الدينارين ؛ وأما النفقة التى تركت وهى نحو سبعين ديناراً فثلثهما لبنات أخى وصية والثلثان لبنى أخى ميراثاً لهم » .

انظروا كيف كانت الخشية تغمر قلوب أسلافنا وكيف كان مبلغ التحرى في تصرفاتهم الجليل منها والحقير ، ثم كيف كان الوفاء يدفع بهم فيعرفون ما للجار عليهم من حقوق وواجبات ، وكيف كانت المروءة تدفعهم فيغمرون من يمت إليهم بصلة القرابة بعطفهم وحنانهم ، ويعولونهم أحياء ويوصون لهم أمواتا .

بأشباه هؤلاء كان يزخر المجتمع الحجازى ومن أمثال هؤلاء كان يتألف الجمهور الحجازى فهل نجد شيئاً من هذا يجعلنا نوازن بين مجتمعنا اليوم وما كان عليه المجتمع بالأمس ؟ .

كلمة شكر واجبة

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من عمل على تسهيل أمر تأليفى لهذا الكتاب ، وسعى لطبعه وإخراجه ، وأخص منهم بالذكر حضرة الشيخ كامل كردى عضو مجلس الشورى الموقر ، فقد سهل لى أمر مراجعة الكتب التى احتجت إليها ، من مكتبته المشهورة بضخامتها ووفرة كتبها ، التى تعد بحق من أعظم دور الكتب وأغناها في بلادنا ؛ والأستاذ إبراهيم نورى مفتش المعارف العامة على مراجعته للكتاب وما أبداه من ملاحظات قيمة ؛ وللأستاذين عواد والسباعى لتفضلهما بتقديم الكتاب وتشجيعهما في إخراجه .

ولا أنسى أن أقوم بواجب الشكر للعواطف الطيبة التى حبانى بها كل من أحبائى السيد صديق فلالى والشيخ سعيد سبهانى والشيخ محمد على كردى والشريف شرف بن تلاب حيث لم يبخل علىَّ الأخيران بتقديم كل ما وصل إلى أيديهم من كتب يسرت مراجعتى .

كما أتقدم بشكرى الجزيل وثنائى الجم للصديق الأستاذ أحمد ملائكه حيث أفرغ وقته الثمين وساعدنى على إخراج هذا الكتاب ، وساهم بقسط وافر في تصحيحه وطبعه ، بالرغم من مشاغله ، مما ترك في نفسي أثراً لن أنساه ، له تقديرى وامتنانى .

المؤلف

كلمة لا بد منها

إن للرواج الذى حازه هذا الكتاب في عموم البلاد العربية والاسلامية ونفاده من السوق ، وكثرة السؤال عنه من القراء ، شجعنا على إعادة طبعه وقد نقحنا بعض المآخذ التى أخذت علينا في الطبعة الأولى .

وإننا نعد الرواج الذى حازه هذا المؤلف دليلا على بلوغ الوعى القومى درجة تدل على يقظته . وإن العودة إلى تأثر خطوات أجدادنا في تفهم التعاليم الاسلامية السامية والتضحية في سبيل تحقيق تلك التعاليم تحقيقا عمليا ، والاخلاص لها إخلاصا يماثل إخلاص بناة أمجادنا وحاملى لواء الحق والقوة والخير والجمال من أسلافنا ، أول واجب من واجباتنا إذا أردنا أن نلحق بركب الحياة ونشارك الأحياء في بناء المجد الانسانى الرفيع ، ولعله مما يسر المتفائلين بمستقبل هذه الأمة أن العمل بروح الاسلام الخالصة من كل الشوائب قد بدأت بوادره في كثير من البلاد العربية والاسلامية وقد برزت إلى عالم التأليف كتب قيمة في هذا الصدد .

واتجهت الهمم لسلوك السبيل القويم من قِبَل أفراد وجماعات ، في كثير من البلاد ، وإننا نبتهل إلى الله صادقين مخلصين أن يكلل الجهود المخلصة بالنجاح حتى نصل الى أحسن النتائج التى يريدها الله لعباده . والله مع المتقين .

وإن الاهتمام بمثل هذه الموضوعات من جمهور القراء يشجعنا على مواصلة التأليف وينعش فينا روح العمل المتواصل . وسيرى القراء قريباً إن شاء الله الجزء الثانى من رجالات الحجاز ، وما التوفيق إلا من عند الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

مصر ــ الروضة في ١٣٧٠/٧/١٠

إبراهيم هاشم فلالى



الفهرس

الموضوع	الصفحة



إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: **الكتاب العربي السعودي**

صدر منها:

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الجبل الذي صار سهلا	(نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟		الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	(تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير

- **قصص من سومرست موم** (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عز يز ضياء
- **عن هذا وذاك** (الطبعة الثانية) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- **الأصداف** (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- **الأمثال الشعبية في مدن الحجاز** (نفد) — الأستاذ أحمد السباعي
- **أفكار تربوية** — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- **فلسفة المجانين** — الأستاذ سعد البواردي
- **خدعتني بحبها** (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله بوقس
- **نقر العصافير** (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- **التاريخ العربي وبدايته** (الطبعة الثالثة) — الأستاذ أمين مدني
- **المجاز بين اليمامة والحجاز** (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بن خميس
- **تاريخ الكعبة المعظمة** (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- **خواطر جريئة** — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- **السنيورة** (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- **رسائل إلى ابن بطوطة** (ديوان شعر) — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- **جسور إلى القمة** (تراجم) — الأستاذ عز يز ضياء
- **تأملات في دروب الحق والباطل** — الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- **الحمى** (ديوان شعر) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- **قضايا ومشكلات لغوية** — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة** — الأستاذ محمد علي مغربي
- **ز يد الخير** — الأستاذ عبدالعز يز الرفاعي
- **الشوق إليك** (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- **كلمة ونصف** — الأستاذ محمد حسين ز يدان
- **شيء من الحصاد** — الأستاذ حامد حسن مطاوع
- **أصداء قلم** — الأستاذ محمود عارف
- **قضايا سياسية معاصرة** — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- **نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي** — الأستاذ بدر أحمد كريم
- **الإعلام موقف** — الدكتور محمود محمد سفر
- **الجنس الناعم في ظل الإسلام** — الشيخ سعيد عبدالعز يز الجندول
- **ألحان مغترب** (ديوان شعر) (الطبعة الثانية) — الأستاذ طاهر زمخشري
- **غرام ولادة** (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- **سير وتراجم** (الطبعة الثالثة) — الأستاذ عمر عبدالجبار
- **الموزون والمخزون** — الشيخ أبوتراب الظاهري
- **لجام الأقلام** — الشيخ أبوتراب الظاهري
- **نقاد من الغرب** — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- **حوار .. في الحزن الدافيء** — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- **صحة الأسرة** — الدكتور زهير أحمد ا لسباعي
- **سباعيات** (الجزء الثاني) — الأستاذ أحمد السباعي
- **خلافة أبي بكر الصديق** — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- **البترول والمستقبل العربي** (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالعز يز مؤمنة
- **إليها ..** (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- **من حديث الكتب** (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- **أيامي** — الأستاذ أحمد السباعي

- **التعليم في المملكة العربية السعودية** (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- **أحاديث وقضايا إنسانية** — الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
- **البعث** (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي مغربي
- **شمعة ظمأى** (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- **الإسلام في نظر أعلام الغرب** (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- **حتى لا نفقد الذاكرة** — الأستاذ سعد البواردي
- **مدارسنا والتربية** (الطبعة الثالثة) — الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
- **وحي الصحراء** (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بلخير
  الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- **طيور الأبابيل** (ديوان شعر) (الطبعة الثانية — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- **قصص من تاغور** (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- **التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية** — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- **زوجتي وأنا** (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- **معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان** — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- **عمر بن أبي ربيعة** — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- **لن تلحد** — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- **رجالات الحجاز** (تراجم) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- **حكاية جيلين** — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- **في رأيي المتواضع** — الدكتور غازي عبدالرحمن القفصيبي

تحت الطبع :

- **عام ١٩٨٤ لجورج أورويل** (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- **وجيز النقد عند العرب** — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- **هكذا علمني ورد زورث** — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- **الطاقة نظرة شاملة** — الدكتور عبدالهادي طاهر
- **لا رق في القرآن** — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- **من مقالات عبدالله عبدالجبار** — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- **الإسلام في معترك الفكر** — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- **ديوان حسين عرب** — الأستاذ حسين عرب
- **ماما زبيدة** (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- **البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف** — الأستاذ عبدالرحمن المعمر
- **من أوراقي** — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- **التنمية قضية** (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- **قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا** (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- **غداً أنسى** (قصة طويلة) (الطبعة الثانية) — الدكتورة أمل محمد شطا
- **تاريخ عمارة المسجد الحرام** (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- **خالتي كدرجان** (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي
- **الحضارة تحد** (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- **الجبل الذي صار سهلا** (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري، الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن — الدكتور خضير سعود الخضير

تحت الطبع :

- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر
- الاقتصاد الاداري — الدكتور فرج عزت
- التعلم الصفي — الدكتور محمد زياد حمدان
- الاقتصاد الصناعي — الدكتور سليم كامل درويش
- مبادىء الأحصاء — الدكتور جلال الصياد، الأستاذ عادل سمرة
- مبادىء الطرق الإحصائية — الدكتور جلال الصياد، الدكتور عبدالحميد محمد ربيع

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا

تحت الطبع :

- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة — الأستاذة عواطف فيصل بياري



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
  (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخارجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة

- المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) — الأستاذة منى غزال
- من فكرة لفكرة (الجزء الأول) — الأستاذ مصطفى أمين
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب
- تاريخ طب الأطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم
- مشكلات بنات — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- دراسة في نظام التخطيط (في المملكة العربية السعودية) — الأستاذ يوسف ابراهيم السلوم

تحت الطبع :

- إليكم شباب الأمة — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- سرايا الإسلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- قريش والاسلام — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدفاع عن الثقافة — الدكتور عبدالعزيز شرف
- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
- مشكلات لغوية — الدكتور شوقي النجار
- دليل مكة السياحي — اعداد تهامة للنشر والمكتبات
- من فكرة لفكرة (الجزء الثاني) — الأستاذ مصطفى أمين
- مسائل شخصية — الأستاذ مصطفى أمين

كتاب تهامة للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال

ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاة • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة
- البوم • البجع • الهدهد • الكنغر • الخفاش • النعام • فرس النهر • التمساح
- الضفدع • الدب • الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصــوم
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- الصــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضــوء

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئ

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — إعداد { الدكتور محمد عبده يماني / الأستاذ يعقوب محمد اسحق }

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D.EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five Year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition
  By Dr. Abdulla Mohamed A Zaid
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who,s Who in Saudi Arabia.
- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of

  The Al Hasa Of Eastern Saudi Arabia

  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib




مطابع سحر